

تجلیات أدبية



مطبوع



كهف الفراشات

ابراهيم فرغلي

كهف الفراشات

كهف الفراشات

إبراهيم فرغلى

الطبعة الأولى، ٢٠٠٣

(C) ميريت للنشر والمعلومات

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام: محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٣٠٤٨

الترقيم الدولي: 977-351-093-x

إبراهيم فرغلي

كهف الفراشات

رواية

دار ميريت



إلى رفقة الشهور التسعة قريبا من قلب لا
نهائى المحبة ..

إلى أمى

مركب تاخذنى .. لبلاد بعاد
ولقا يصادفنى .. من غير ميعاد
زمن ياخذنى لمكان ..
عطشان أنا عطشان ..

عبد الرحيم منصور
* الأغنية بصوت محمد منير

مدخل * فراشات

* فراشات : قصة قصيرة نشرت سابقا ضمن مجموعة قصصية باسم "باتجاه المأق" .
وقد أعيد نشرها ببعض التصرف إذ أن هذه الرواية لا تستقيم أحداثها دون الإشارة إليها.

كنت على يقين كامل بأن ما تتداوله الألسنة هنا في هذه المنطقة الصحراوية النائية والمحاطة بالجبال ليست إلا مجرد خزعبلات من خلق خيال الأجيال القديمة للبدو توارثها اللاحقون كل يلقتها لمن يليه بعد تحريف يلائم ظروف عصره أو حكيه.

لذلك فسرعان ما نفضت تلك الحكايات من رأسي مركزا اهتمامي على ما حضرت من أجله وهو دراسة سرعة الرياح واتجاهاتها في المنطقة صيفا وشتاء، وتأثير ذلك على طرز البناء القديمة ثم مدى استفادة المعمارين المعاصرين من هذه التصميمات في الوقت الراهن.

سجلت ملاحظاتي خلال جولتي بالمناطق الداخلية التي ما زالت أغلب بيوتها تحتفظ بالطابع القديم، وكلها تتكون من طابقين لا يحوى الأول أية فتحات تهوية أو منافذ، أما الطابق العلوى فيحوى مجموعة من النوافذ ، اكتشفت أنها تواجه الجهة التي منها تأتي الرياح الجنوبية الغربية القادمة من جهة البحر البعيد خاصة فى فصل الصيف حيث يكون الطقس شديد الحرارة مع نسبة رطوبة عالية، وهو ما لاحظته أيضاً فى أثناء زيارتي لذلك الحصن الضخم الواقع على أطراف المنطقة ، فالبرغم من إضافة الأسوار والمخابئ السرية والأبراج فإن عامل المناخ كان حاسما فى التقيد بالتصميم ذاته.

كان "الصلت" هو الشخص المكلف بمراقبتى . وهو على معرفته التامة بالمكان - آثاره وأشخاصه - له مواهب خاصة ؛ إذ أنه يتقن اللغة الإنجليزية واللهجات العربية المختلفة ويتكلمها كأهلها، كما أنه على دراية تامة بكل مداخل الكهوف المنتشرة فى أعماق سلاسل الجبال التى تحيط بالمكان ناهيك عن دروبها الداخلية ومخابئها السرية ومخارجها إن وجدت.

يأتى إلى فى الصباح ليسألنى عن الأماكن والمناطق التى أرغب فى زيارتها ليحدد على ضوء ذلك برنامج اليوم، وترتيب زيارة المنطقة.

كان الكهف مستقرا فى بطن أضخم جبال المنطقة، على ارتفاع نحو عشرة أمتار عن سطح الأرض. وكان علينا أن نصعد بحذر شديد؛ بسبب الانحدار الشديد للجبل بالإضافة إلى وعورته الشديدة.

رحت أصيخ السمع مندهشا لما تصورت أنه ألحان موسيقية عشوائية خافتة ارتفعت تدريجياً بمدى اقترابنا من الكوة الضيقة التى تفتح الطريق للكهف المتسع، ووصلت ذروتها وأنا أقف فى عمق الكهف أجيل بصرى فى جدرانه، وأرقب النتوءات والزوائد الحجرية فى سقفه، محاولا اكتشاف أية منافذ سرية يحتمل أن تنطلق منها هذه الألحان ، أو تكشف عن وجود مكان لجوقة العازفين المهرة الذين ملأوا المكان بسحر موسيقاهم، التى تتناغم مع أصوات بشرية تصدح بألحان أسطورية مدهشة تبدو وكأنها تصدر من أعماق هذه الموسيقى

ذاتها. اختلس النظر إلى "الصلت" فأجده يبتسم ابتسامة مكررة وهو يجيل بصره في أنحاء المكان. فور خروجنا من الكهف عاد سرب الفراشات الكثيف إلى حيث كنا مرة أخرى : فراشات جميلة لها ألوان صفراء وحمراء وبنية داكنة تطير في جماعات وبخفة لتبدو كأنها ترقص على الألحان الأسطورية في رشاقة.

خرجت من الكهف صامتًا تتجاذبني الهواجس، وتناوشني أسئلة كثيرة . لم أنطق بكلمة خلال الطريق الطويل، ولم أعلق على شيء مما قاله "الصلت". كنت مسحورا ومسكونا بالألحان وبقدرتها المدهشة على استعادة شفافية الروح.

انهكنى الأرق إذ تناوبت الألحان والأفكار وحكايات "الصلت" على رأسي فلم أستطع النوم. عاندتني مخيلتي وراحت تتسع بشكل مرعب بحيث إنني فقدت السيطرة على كل ما راح يطوف بها من مشاهد وما يخلق من خيالات وبشر. وبين أن وآخر يختفي من رأسي كل شيء عدا مشهد الفتى وفتاته في أعماق الكهف، وهما يتحولان إلى فراشتين جميلتين، سرعان ما تحول رفيفهما إلى ألحان أسطورية صاخبة لم تنقطع حتى هذه اللحظة.

رأيت القافلة تسير عائدة تحوم حولها صقورها ، يتقدمها نعش لشيخ القبيلة؛ إذ أنه لم يحتمل المفاجأة التي أفقدته صوابه، وهو يرى بعينيه ابنته العاصية وعشيقها يتحولان إلى فراشتين - كما حكى لي الصلت - وكانت الألحان تتردد في أعماقي بصخب ، تنثر النشوة وتندفق بلا انقطاع.

* * *

اعتقد أنني استيقظت في اللحظة التي بدا فيها جسدى
معلقا في الهواء تماما، وعندما ارتطمت بالأرض نهضت
مفزوعا. حدثت في موضعي على الفراش حيث كنت نائما منذ
لحظة. اعتدلت جالسا أحاول استرجاع تفاصيل الحلم الذى
رأيت فيه ما جعلنى ألقى بنفسى من فوق الفراش. بسم الله
الرحمن الرحيم.. تضخمت صورة السيدة العجوز في مخيلتى ،
وبدت ملامحها شديدة الوضوح، خاصة عيناها الصغيرتان
السوداوان اللتان تعكسان طبيبتها وعنادها فى أن. غير أنها
عندما حدثت فى عيني اكتشفت قوتها الهائلة إذ هيئ لى أنهما
قادرتان على قراءة كل ما يجول بعقلى من أفكار وما يطوف
فى روحى من مشاعر.

فاجأتنى العجوز بعينيها اللتين وجدتهما فى مواجهتى
تنفذان إلى أعماقى وقد سلبتا قدرتى حتى عن تحويل عيني
هروبا من ذلك التأثير النفاذ، وكانت الكلمة تتضخم فى أعماقى
.. الشجرة...! عندها تحولت العجوز تحولا مفاجئا ومداهما كما
الصرخة التى راعى خروجها من أعماقى..... "الشجرة"!!
وكانت هى ذات الشجرة المتاخمة لكهف العشاق.

* * *

كان الهواء الرطب الذي يلفح وجهى يزيد من حماسى
وأنا أسير خلال الوادى الضيق الذى يقع الكهف على أطرافه.
ولكى أكون صادقا فإننى لم أكن سائرا إذ شعرت بأننى خفيف
تماما وكأننى محمول من قبل قوة غريبة وغير معروفة كان
عليها أن تسرى بى إلى حيث كانت تلك الشجرة. أندفع غير أبه

بالليل ولا بالظلام ولا حتى ذلك العواء المخيف الذى كان يتردد فى أرجاء الوادى وكثيرا ما أزعبنى وأذهب عن عيونى النوم خلال الليالى السابقة . عندما وصلت أخيراً كانت الرياح قد اشتدت تماماً. تلفت حولى فى حذر عندما التقطت أذنى صوت بدا كأنه أهات خافتة مختلطة بأنات واهنة كانت تخرج لاهثة غير أنى لم أستطع تحديد مصدرها.

سمعت اسمى فأجفلت وكان الصوت الواهن يشند قليلا معلنا عن مكان صاحبه . رأيت الجسد مسربلا بالأسود ملقى على الأرض بلا حركة. عندما اقتربت تبينت من الصوت الذى صارت نبراته أكثر وضوحاً أنه يخص أنثى... سألتنى بوهن:
أخيراً حضرت؟

أخرجت من حلقى همهمات غامضة إذ أننى لم أكن أفهم شيئاً. تأوهت بشدة فيما كنت أحاول مساعدتها على النهوض وهى تضغط بأسنانها العلوية على شفتها السفلى . تأملت عينيها فراعنى جمالهما. لم تكن عيناها السوداوان واسعتين غير أنهما كانتا تلتمعان ببريق أخاذ ، يزداد كلما حدقتُ فيهما..... وارتجفت . عاودنى هذيانى . وقد أدركت أننى أعرفها منذ عمر طويل.. ربما يمتد بطول حياتى كلها.. عاودنى هذيانى.

اصطكت الأسنان / عبق الجسد الأليف / جراح الجسد
المثخنة لم تصل إلى الروح / سهيل خيول قيدت أطرافها ما
برح يداهمنى / ثارت الخيل وراحت تطرق الأرض بقوة /
آه ه/ حلقوا شعر رأسك يا جميلة / هل طال ذلك من سحرك

قيد شعرة / عاودتها الحمى فطافت كفى على الجسد النحيل
الذى لم تزده الجراح إلا نعومة / عيناك يا مليكتى تضيئان /
ارفقى بقلبي الطفل فأنا لا احتمل أهائك / قلبى يرقص على
إيقاع خلخالك / خمرة أنت لا سمراء إذن / طاقت الشفتان
على الحلمتين فهمستا انتظرنا عشرين عاما/ وزادت الشفتان
ثمانية / إذا حل علينا عيد سأحنك بنفسى / لأنامل قدميك بهجة
صباح توقظنى فيه عيناك / أغرقتنى بخرم عينيك فلا تبالى
بهديانى / أندفق إليك أو أتوق / احمنى من قهر القبيلة يا جميل/
نداءاتك يزركتها رنين الخلال / امسحى دموعك وابك كطفلة/
عيناك تتسعان فى مرآة عيني فتحتويانى / ارتجفت فى احتكاك
العانتين / لا تبعدى ساقيك لأتحسس الخلال / رفيف أجنحة
الصقور نذير الشؤم / لا تتركنى لهم يا جميل / دثرينى أنت
بعريك لنطير / مع الفراشات كدنا نظير.

* * *

لم ينجح "الصلت" لأسبوعين متتاليين فى إخراجى من
حالة الصمت التى تملكنتى، كما أننى رفضت كل ما ناولنى إياه
من أدوية وأعشاب جلبها لى لتذهب بالحمى التى سيطرت على
جسدى. غير أننى بعدما رحمت أحلم بالفراشات كثيرا ، خرجت
عن صمتى، وأقسمت له أننى أصدق كل ما أخبرنى به وأنا
أصدق بالفراشات التى كانت تحلق حولنا فى حذر. فى صباح
اليوم التالى فوجئت بوجود خلخال فضى مبرقش بنقوش جميلة
وقديمة موضوع على المنضدة المجاورة لفراشى، هالنى أنه ما
زال دافئا. وكانت الفراشات قد حضرت تدعونى للخروج!

الخرج

لم أحمل معى إلا قنديلا ودفتر مذكراتى القديم. أحكمت من غلق المعطف الذى تدثرت به عندما وضعت قدمى خارج الباب. حاولت تجاهل خوفى وأنا أتحسس طريقي بين النخل الواقع أسفل الجبل. تجاهلت الأصوات الغريبة المصاحبة لخريف المياه فى المجرى الموازى للطريق. كتمت صراخى عدة مرات وأنا أتفادى ما فاجأنى من كائنات لم أعرف ما إذا كانت طيوراً ليلية أم خفافيش، أو ربما أشباحاً لها عمر هذا الكهف.

وجدت نفسى أخيراً أقف فى عمق الكهف لاهثاً وممتمناً بالموسيقى السحرية التى تصطبغ فى أرجاء المكان. فى اللحظة التالية صرخت عندما شاهدت شبحاً ضخماً يقترب منى بخطى وثيدة قبل أن يسألنى بصوت غليظ:

- من أنت؟
- أهذا أنت يا صلت؟
- لست "الصلت". أجب عن سؤالى.
- أجفلت ولم أجد ما أقوله.
- جاءنى صوته أكثر غلظة:
- ألم تسمع سؤالى؟

- أنا .. حضرت .. لأجل .. فتاة .. كنت أحلم بها
كثيرا .. رأيتها هنا منذ أسبوع وقد حضرت لأبحث عنها.
حل الصمت لفترة قبل أن يأتيني صوته مرة أخرى وإن
حملت نبراته شبهة اهتمام ما:

- صفها لى .

- لا وصف لها .

- هل هى من الإنس أم من الجان؟

- لا .. لا .. طبعاً إنسية .

- فكيف تكون بلا وصف؟

حاولت استرجاع تفاصيل الرؤيا وذكرتها له تماماً كما
رأيتها . فتاملنى قليلا وهو يحدق بعينى قبل أن يقول:

- ما تبحث عنه يبدو مستحيلا إذ أننى لا أعرف وصفا
كهذا، غير أنى ألمح فى عينيك ما لا يظهر إلا فى عيون
العشاق . فاسمع منى على أن تعدنى بأن تحكى لى بدورك كل
شئ فربما أستطيع مساعدتك .

أنت هنا فى كهف الفراشات أو بالأحرى كهف العشاق .
لم يصل إلى هنا إلا عاشق . غير أن المتأهة فى هذا الكهف بلا
قرار . ودروبها وعرة . وتحتاج إلى صبر وتأن شديدين، وقبلها
إيمان تام وإخلاص مطلق . فلم يصل قبلك أحد هنا وخرج
سالما، سوى عاشقين تحولوا بسحر الحب إلى فراشتين؛ فنجيا
من القهر وتحقق حبهما المستحيل . وما تسمعه الآن ليس إلا
غناءهما لحبهما الذى لا ينقطع بمرور السنين، ودعوتهما الأبدية
للعشاق أن يحققوا الحب المستحيل . إعلم أيضاً أن الفساد الذى

يعم فى الخارج من القوة بحيث إنه لحق بدروب الكهف
ومسالكه، وأصبح على الداخل إليه أن يجتاز مصاعب متعاقبة
وأن يسير فى دروب شاقة حتى يصل إلى مراده. أما
المغامرون من أمثالك فقد تعاقبوا على هذا الكهف منذ وقت
طويل، بعضهم فروا هاربين، وآخرون اختفوا فى دروب
المتاهة ولم يبق لأى منهم أثر.

عندما صمت الرجل أحسست بالرهبة تتلبسنى خاصة
أنه تثبت عينيه فى عيني بقوة:

- هل تعرف أن "الصلت" قد رأى رؤياك؟

- "الصلت"؟!

- نعم.. ولعلك لا تعرف أنه أيضاً على علم بأشياء
كثيرة عنك. ولا تسألنى كيف عرف. وهو يعرف من آلام
العشق ما يفوق ما خبره منها سواه. وقد يحكى لك قصته يوماً.
كان يصرخ طوال الليل بما عرفه عن رؤياك. ولهذا فأنى
سأحكى لك قصتى كما وعدتك لمعرفتى باخلاصك.

عندما عاود الحديث بدا صوته وكأنه يصدر من عدة
رجال فى نفس اللحظة يقف كل منهم فى ركن خفى من أركان
الكهف:

- أنا يا ولدى أحد الفراشتين اللتين سمى باسمهما هذا
الكهف.. كانت معشوقتى أجمل بنات قبيلتها وهو ما جعلها
بطبيعة الحال مطعم رجال القرية كلها.

فاجأنى ما قاله الرجل. دقت النظر فى ملامحه. كانت
قسامات وجهه متناسقة غير أن وجهه بدا بلا غضون . عيناه

زرقاوان واسعتان صافيتان كأنهما عينا شاب فى العشرين، وبداء
جسده فتيا رغم الانطباع الذى يعطيه بأنه عجوز معمر ..
أفقت من شرودى وهو يقول:

- يوميا مع وصفاتها إلى البركة المجاورة للقصر
تخلع ثيابها كلها وتلقى بها إليهن قبل أن تسلم جسدها لمياه
البركة تلهو وتلعب وتغنى .. وكان صوتها جميلا إلى الدرجة
التي تصمت معها كروانات وبلابل لا هم لها إلا الصداح ..
بدأت أصيخ السمع للألحان التي لم تتوقف من حولنا،
إذ تهيأ لى أنها تتناغم مع أصوات بشرية تصدح بألحان مدهشة،
تبدو وكأنها تصدر من أعماق هذه الموسيقى ذاتها. حاولت أن
أركز لأتعرف على صوت الأميرة الساحر .. دون جدوى ..
وجاءنى صوته مرة أخرى ليفيقنى من شرودى:

- بشتى الطرق ليأمن بطشه ويحقق مأربه. وما إن
وقع بصر ابن ذلك الطاغية على الأميرة حتى شغف بها، ولما
رأت أنه يشاركها ما تحبه بادلته إعجاباً بإعجاب، غير أنها
بمرور الوقت اكتشفت أن شيئاً من ذلك لا يعنيه. وأنه لم يكن
يرغب إلا أن يضم جثة جديدة إلى جثث الحريم فى قصره.
حاولت أن أكوّن صورة عن هذه الأميرة. وقد داعبت
خيالى بقوام فارغ وبشرة بيضاء وشعر فاحم مسترسل حتى
ظهرها. ومكتنزة قليلا رغم طولها. ثم إنها أصبحت أطول قليلا
وصارت بشرتها نحاسية وقدماهما نحيلتان ودقيقتان .. وعيناها
عسليتان وبهما سحر خاص.

ارتفعت نبرات صوته كأنه أدرك غيابه عما يقوله
فانتبهت:

- من برائن ذلك الوغد. ومنذ ذلك اليوم بدأت قصتي
معها والتي كادت أن تهلكنا لولا تلك المعجزة القدرية التي
حولتنا بقوة الحب وإرادته، إلى فراشتين . هذه هي قصتي.
قصة هذا الكهف. وقد أوجزتها لأنني ألمح في عينيك لهفة
العشاق. تريد أن تبدأ الرحلة.. أليس كذلك؟ ليكن. ولكن ليس
قبل أن تنفذ وعدك بأن تحكى لي كل شيء.

مددت إليه بدفتر مذكراتي وأوراقى.. تركتها بين يديه
وأنا أبداً سيرى بعيداً.. كمجذوب، وكان صوته يلاحقني "اصبر"
يا ولدى.. الطريق وعرة ولا يعرف خفاياها إلا من امثلك
مفاتيحها.. اصبر.. اصبر.. اصبر.....".

تنهدت بعمق فور انطلاق الأتوبيس الذى بدأ فى التحرك أخيراً. التفت إلى الساعة فى يدي. كانت تشير إلى التاسعة. ألقى نظرة أخيرة على الفتاة الشقراء عبر النافذة. لم أستطع رؤيتها بوضوح. انعكست صورتى على النافذة فداهمنى توترى مرة أخرى.

ارتطمت ذراع الجالس بجوارى بكتفى . التقت عينانا. همهم معتذرا. ابتسمت وهمممت بدورى. أدركت من زيه العسكرى أنه مجند يقضى فترة تدريبه العسكرى. لم أستطع أن أتبين شيئا عبر النافذة. أدركت من الظلام الدامس أن الأتوبيس قد خرج من المدينة. كانت الشاشة تعرض فيلما سخيفا فعادت التحديق عبر النافذة.

هددنى النعاس.. ولم أكن قد نمت جيدا بالأمس كما هى حالى فى الشهور الثلاثة الأخيرة. حدقت فى اللاشئ عبر النافذة مستسلما للنعاس حتى غفوت.

عندما استيقظت نظرت عبر النافذة. رأيت مجموعة من الحافلات وجمهرة من الأجانب والمصريين أمام مبنى متهاك بدا لى كمقهى درجة ثالثة تم تطويره إلى كافيتيريا. كان

الأتوبيس خالياً إلا من مجموعة من الجنود فى مقدمته. سرت فى الممر بين صفى المقاعد حتى حاذيتهم، وعرفت منهم أننا فى استراحة قريبة من "السويس".

نظرت إلى الساعة وأنا أهبط من الحافلة. أشارت إلى الثانية صباحاً. توجهت إلى الكافيتيريا واندستت وسط الزحام حتى استطعت الحصول على كوب شاي. بحثت عن الجندى الذى كان يجاورنى . تجولت ببصرى بحثاً عن طاولة خالية حتى وجدت واحدة يجلس إليها شاب أسمر نحيف. استاذنته فى الجلوس فأشار بيده مرحباً قبل أن يقرب الساندويتش فى يده باتجاهى. شكرته فبدأ يأكل بنهم. أشعلت سيجارة وارتشفت من كوب الشاي رشفة. بدا مغلياً للمرة الألف. لفتت نظرى فتاة شقراء ترتدى بنطلونا أسود قطنياً، وقميصاً أصفر واسعاً تقف أمام دورة المياه وهى تضع إحدى يديها على بطنها. كانت تدخل إلى هناك ثم ما تلبث أن تعود وعلى وجهها ملامح استياء وألم. ثم اندفعت باتجاه الحمام وتأخرت فأدركت أنها أخيراً قد قضت حاجتها.

ارتشفت رشفة أخرى من كوب الشاي. رفعت عيني فتعلقت بعيني فتاة نحيفة بشرتها قمحية أخاذة، أعطائها شعرها المجعد هالة من الجاذبية، سدت نظرها إلى باصرار فنحيت نظرى عنها مرتبكا، وأنا أجدب أنفاساً متلاحقة من السيجارة فى يدي.

اختلفت نظرة أخرى فوجدتها تحول عينيها إلى صديقتها الجالسة بجوارها وتبادلها الضحكات.

خرجت الفتاة الشقراء من دورة المياه وعلى وجهها ملامح تفزز. أحسست بثقل أسفل بطنى فتوجهت صوب الحمام. تعلقنتى رائحة نفاذة وشعرت بالاختناق. أدركت سر تفزز الفتاة وترددها طويلا قبل دخول الحمام.

خرجت لاهثا من طول كتمانى لأنفاسى . روادنتى رغبة فى التقيؤ فأسرعت إلى الخارج لاستنشاق الهواء بعمق. وجدت الجميع يتجهون إلى الأتوبيسات . بحثت عن الفتاة القمحية إلا أننى لم أجد لها أثرا. أسرعت باتجاه "الأتوبيس" حيث كان السائق يطلق نفييره فى عصبية.

سمعت ضحكاتها فى أعماقى. كنت قد افتعلت معها مشكلة فى الأيام الأخيرة قبل قرارى بالهروب إلى "شرم الشيخ" منها ومن صورة نورا التى تلاحق خيالى بإصرار عنيد. أردت الهروب من نظرات الشفقة ومن رئيسى بالعمل، ومن نفسى. ربما كان ذلك ممكنا ولكن كيف أهرب من هذه الهواجس التى تسكننى ومن الأرق المرعب الذى يمنع عنى النوم ومن الكوابيس التى تداهمنى إذا عرف النوم طريق إلى عيونى!؟

أريد أن أهرب منها بدون مواجهة . فلم أعد أشعر بأننى أمتلك القدرة على مواجهة أى شىء. أعرف أن هذا سيسبب لها ألما. لكنها أصرت، وكان على أن أصارحها. قلت لها إن ما بيننا محكوم عليه بالفشل.

عندما أُلحِت فى لقائى حاولت التوصل. أردت أن أوضح لها الأمر بهدوء، أن أقول لها إن علاقتنا تسببت فى زيادة إحساسى بالذنب. ولم تتجح فى محو صورة "نورا" من خيالى. بالعكس كنت أقارنها بها طوال الوقت. ولم تكن المقارنة

فى صالحها. فقد كان تفاهمنا أنا "ونورا" مدهشا مهما بدونا
مختلفين، ومهما ذهبت عصبيتنا إلى مناطق الانفجار. لم أكن
معتادا على مسألة استمناء المشاعر هذه ، افتعال أنى أحبها. لم
أكن مستعدا للكذب عليها. غير أننى كنت مدفوعا إليها كملاذ
أخير من الجنون الذى شعرت أننى موشك عليه.

بدت منفعة ومضطربة. أدركت فيما يبدو أننى على
وشك الهروب. توتر صوتها، وبكت كثيرا. أثارت أعصابى
بتوترها وبتصديرها الإحساس بأننى أتسبب فى إيلاهما.
صرختُ قائلا إننى لن أستطيع مواصلة هذا الاستنزاف، وإنها
لم تستطع أن تتسببنى ألامى، وأننى غير قادر على مبادلة الحب
لأى شخص وأن علاقتى بها حطمت ما تبقى سليما فى روى.

* * *

أشارت عقارب الساعة فى يدى إلى الساعة وأنا أقترب
من الباب الحديدى الضخم المتاخم للسور المحيط بالمبنى الأنيق
المكون من طابقين، والذى يطل على فناء واسع به مجموعة
من ملاعب كرة السلة والقدم، تجاورها مساحة أخرى خالية
حددت بإطار أخضر من الحشائش العشوائية والزهور وبعض
شجيرات صغيرة.

سرت على مشاية أسمنتية تفصل بين المبنى والفناء
حتى لمحت إشارة على شكل سهم أسود خشبى إلى اليمين
فانحرفت فى ممر انتشرت على جانبه الأيمن بعض الشجيرات
فيما أحاطنى على اليسار جانب من المبنى الرمادى المبرقش

تتخلله نوافذ رأسية مستطيلة الشكل ضيقة وطويلة. فى نهاية
الممر كان الباب الأسود الأنيق على يمينى مفتوحا فدخلت .

صعدت إلى الطابق الثانى بعد أن أنهيت إجراءات
الاشترارك وتسديد قيمة المبيت لثلاث ليال، يقودنى شاب نوبى
أخبرنى بأن اسمه "محمد". أدار المفتاح بباب الغرفة الأخيرة
الواقعة فى منتصف الردهة الطويلة. غرفة صغيرة مطلية
بطلاء أبيض ناصع ، تنتهى بسريرين متقابلين وتتوسطها نافذة
مستطيلة بعرض شبرين، بينما لا يقل ارتفاعها عن متر، لها
إطار أحمر داكن، يعلوها جهاز التكيف الذى أضفى على جو
الغرفة برودة خفضت من توترى قليلا.

استرخيت فى الفراش مستمتعا ببرودة الغرفة المنعشة .
تهياً النوم لى ممتعا وعذبا خاصة بعد الرحلة الطويلة، ولكنى
خفت أن استغرق فى النوم إذا استسلمت للنعاس، فأسرعت
خارجا إلى الحمام الذى يتوسط الردهة الطويلة خارج الغرفة .
اغتسلت ووقفت تحت المياه الباردة طويلا. عندما انتهيت
ارتديت ثيابى بسرعة وتوجهت إلى المطعم فى الطابق السفلى.
تناولت إفطارى ثم خرجت أقصد الشاطئ.

نزلت إلى المدينة أسفل التل الذى يستقر فى أعلاه "بيت
الشباب"، بحثت عن وسيلة مواصلات دون جدوى . اقترح على
أحد السبدو أن ينقلنى فى سيارته النصف نقل نظير جنيهين
فوافق على مضمض.

فى الطريق إلى الشاطئ أثار انتباهى وجه آدمى
منحوت فى الصخر المكون للجبل القائم على جانبى الطريق.

حاولت استدعاء اسم صاحبه غير أنى أخفقت . سألت السائق فقال: هذا وجه "كينيدى". فى أثناء الاحتلال كان الإسرائيليون يسلطون عليه الضوء ليلا استهدافا للسياح.

توقفت السيارة فى ساحة أسفليته واسعة تعلو مستوى الشاطئ الممتد إلى اليسار وقد تراصت الفنادق المكونة من مجموعة شاليهات وكافيتريات على طول امتداده. أعطيت السائق النقود شاكرًا قبل أن أهبط من السيارة. بدأت فى البحث عن الفندق الذى يعمل به "خالد" حتى وجدته. سألت عنه فأخبرنى أحد العاملين بأنه نائم، وأضاف أن الفرقة التى يعزف بها لا تنهى عملها قبل الصباح.

عبرت المشاية المبلطة التى تفصل الفنادق والكافيتريات عن الشاطئ وسرت بمحاذاة البحر. كانت الأمواج هادئة والمياه شديدة الزرقة. على بعد أمتار خرجت فتاة شقراء شعرها طويل من مياه البحر وسارت فى تتأقل باتجاه الفندق. ذكرنى جسدها النحيل المتناسق بـ "تورا" . عاودنى ذلك الإحساس الثقيل.

كنت أجردها من ثيابها وأتركها له يعبت فى جسدها كيف يشاء. فيما ينطلق صراخها من أعماقى . صراخ شبق ييح بسبب صوتها تدريجيا. ويرتجف جسدها من شدة شهوتها. كنت أراها تمسد له جسده. وأعرف أنها ستحاول إظهار أنه التجربة الأولى فى حياتها. وستتظاهر، قطعاً، بأنها لا تجيد التقبيل. ولكنها سوف تنهش له ظهره بأظافرهما. كنت أعرف أنها ستعطيه كل شىء عن طيب خاطر. وكان هذا هو بالتحديد ما يفقدنى صوابى وعقلى.

سرت متهدج الأنفاس فيما كان الممر الذى سلكته يضيق تدريجيا حتى وجدت نفسى أمام حائط سد لا توجد به منافذ. تحسست الجدار بيدي على ما أستدل من خلاله على وجود أى منفذ دون جدوى. بدأت أطرق بكفى على الجدران برفق قبل أن تنتابنى حالة هستيرية جعلتنى أسرع بالطرق فى كل مكان حتى تناهى إلى سمعى صوت كأنه أت من زمان سحيق. ولكنى لم أفهم منه شيئا. بعد لحظات شاهدت فى أقصى ركن الجدار إلى الأسفل إضاءة شاحبة أسرعت باتجاهها لأجد كوة صغيرة. نزلت على ركبتى وأدخلت رأسى من الكوة فلم أستطع رؤية أى شىء، دفعت بنفسى داخلا. وجدت مجموعة من الرجال أطلقوا شواربهم واللحى يفترشون الأرض فى شبه حلقة دائرية وهم يحملون باتجاهى. كانوا عرايا إلا من مآزر أخفوا بها عوراتهم. سألنى أحدهم أن أقترب، وسألنى عما أبحث عنه فأجبتّه. فقال لى بصوت رخيم وبنبرة هادئة:

- هذا هو درب الجنة. أطلب من تشتهى حضوره نأت به إليك ولو من زمان سحيق. فكر فى امرأة التقيتها فى أى مكان أو زمان تكن أمامك قبل أن يرتد إليك طرفك.

قدمت له وصف حبيبتي. قال أعطني دليلاً أو أثراً.
قلت: لا أملك شيئاً من هذا. سألني عن اسم أمها ولم أكن
أعرفه. ضحك وهو يردد: لا تقلق سنحضرها إليك أينما كانت.
اجلس في تلك الزاوية حتى تأتيك الإشارة.

مر وقت طويل قبل أن يلتفت إليّ الرجل ذو اللحية
البيضاء الذى حدثنى سابقاً: والآن أتى دورك . سنخلى لك
المكان. وستأتى إليك من طلبتها. لكنك لن تخرج بها إلا
بشروطنا.

بدءوا فى الخروج متتابعين ، وتركوني وحيدا مع
دهشتي وقلقي والظلام.

انتظرت طويلا حتى شعرت بأننى أتناكل بفعل القلق
والخوف والإحساس بالبرد. فكرت أن أبحث عن طريق
للخروج لكنى لم أستطع الحركة.. فبقيت جالسا حتى غالبنى
خدر كالنعاس جعلنى أشعر بأننى على حافة نوم طويل.. لفحت
وجهى أنفاس باردة . مددت يدي لأتحسس مصدرها فلم ألمس
شيئاً.. لم أسمع سوى صوت أنفاس منتظمة تنسال على وجهى
فتزيد من توترى.

بعد لحظات شعرت بلمس إصبعها لزجا على شفتى .
ثم على وجنتى وجبهتى .. شعرت بلمس كفين صغيرتين
ناعمتين تمران على جسدى برفق . فى اللحظة التالية بدأت فى
نزع ثيابى عنى . اندهشت غير أننى لم أستطع حتى أن أسألها
عما تفعل . عندما انتهت من نزع ثيابى شرعت فى تمرير
كفيها على جسدى العارى. ملمسها غريب.. لزج

وبارد. زاد إحساسى بالضيق. وخرجت الكلمات منى بصعوبة:

- أئن تخبرينى.. من أنت؟

وجاءنى صوتها بنبرة غريبة بدت كالفحيح:

- أنا من تبحث عنها منذ سنين . سنوات طوال مرت وأنا هنا أنتظر. وها أنت أخيرا قد حضرت . ولم يعد أمامنا إلا ما نفعه الآن. فلنكمل ذلك ففتتح لنا كل الأبواب.

عاودت طقوسها الغريبة . أحسست بالخفة. حاولت النهوض لكنها ألقّت بنفسها على . كانت عارية. وبدا ملمس جسدها غريبا وشديد البرودة. لاحظت أنها سكنت عن الحركة. ولوهلة أحسست بأننى مراقب. داخلنى شعور مفاجئ بالخواء. قلت:

- لسنا مضطرين إلى ما نفعه الآن. علينا أن نخرج من هنا أولا لتتحرر ونحقق حلمنا الكبير.

أطلقت ضحكتها الصاخبة التى بدت لى موحشة .

قالت:

- ألم يخبروك بأن الدرب صعب وأن الطريق طويل وأن هناك شروطا ينبغى تنفيذها؟

- بلى.. لكن أرى الأمر أبسط من هذا بكثير. فأنت الآن معى، وليس علينا إلا أن نركض من هنا خارجين.

- بهذه السهولة..!؟!

- وما الذى سيحدث؟

- سيغلقون كل الأبواب إذا لم تنفذ شروطهم.

- ومن هم هؤلاء؟
- حراس الكهف والقائمون عليه.
- ولكن هذا هو كهف العشاق..
- وهم لم يطلبوا منا أكثر من ممارسة العشق..
- والخروج إلى الحياة..
- هل يعنى ذلك أنهم يراقبوننا الآن؟
- من قال ذلك؟
- كلامك يشى بذلك.

احتدت نبرات صوتها قليلا وهى تقول:

دعك من هذا الجدل. أنت لا تستطيع أن ترفض. هم يملكون القوة . وأنا روى معلقة بين أيديهم. إذا لم ننفذ ما يقولون فأنت تعرضنى للضياع. لن أستطيع الخروج من هنا. ولأن اسمك مكتوب على موضع حرثى فإن أحدا غيرك لا يملك القدرة على فعل ذلك، وهو ما يعنى أننى سأعيش بقية حياتى مقبورة هنا، وسيفقد كل منا الآخر إلى الأبد.

الحرارة الشديدة والشمس الحارقة تسببت في إحساسى بتوهج وجهى وانسيال العرق من جسدى بغزارة. وصلت إلى الشاطئ، وجدت قرية سياحية صغيرة يفصلها عن الشاطئ مساحة دائرية مرتفعة قليلا عن سطح الشاطئ مهدت بالأسمنت، انتشرت على مساحتها مجموعة من المقاعد التى تحيط بطاولات بلاستيكية تتركز فى مركز كل منها شمسية كبيرة . فى الخلف كافيتيريا صغيرة يجاورها "بار" تراصت أمامه مجموعة من المقاعد. بجوار الـ "بار" تضيق المساحة لتصبح ممرا يتصل بمبنى أبيض صغير يضم بعض الغرف، امتدت خلفه مجموعة كبيرة من الخيام لراغبي الإقامة بأسعار أقل ، فيما كان الجبل فى خلفية كل ذلك رابضا يحيط بالمكان ويساهم فى صنع جماله.

اخترت أقرب الطاولات إلى الشاطئ . على مقربة منى جلست مجموعة من الشباب بالمايوهات والـ "تى شيرتات" يتأملون البحر فى صمت . على امتداد بصرى شاهدت فئتين مستقلقتين على بطنيهما تحت إحدى الشمسيات المحفورة فى رمال الشاطئ ترتديان الـ "بكيني"، بينما انسحب شاب

أسمر رشيق من جوارهما متجها إلى مياه البحر شديدة الزرقة.

طلبت من النادل زجاجة "كوكا كولا" ارتشفتها بسرعة وأنا أتابع الفتاتين على الشاطئ.

تأملات المقعد الخالي بجوارى وتمنيت ، رغم كل شيء ، أن أرى "تورا" جالسة. تبتئتي جمال وجودها وتخلصني من هذا الشعور بالخواء والخوف غير الميرر وعدم الثقة المطلقة بالبشر وبالقيم وبنفسى .

ملاحظتها محفورة بمخيلتى كأننى أراها أمامى لا يستخفى على خيالى شيء. ملامح وجهها الطفولي وعيناها الضيقتان السوداوان وأنفها الحاد الدقيق وشفتاها شديدتا الرقة، ورقبتها النحيلة . حتى جسدها النحيف الذى أحفظ بمواضع الشامات على امتداده. أنامل يديها الرشيقتين بأظافرهما المقيبة قليلا وقدماهما الصغيرتان النحيلتان بأصابعهما الأليفة. استدارة رديها هائلى النعومة . قلت لو كنت أملك موهبة النحت لصنعت لها تمثالاً يماثلها دون الحاجة لرؤيتها على الإطلاق.

* * *

عاودت الرؤية نظرى المصوب إلى الشاطئ. كانت الفتاتان متجهتين إلى مياه البحر. رشت إحداهما الماء بيديها وقدميها على الفتى الأسمر. ركض باتجاهها قبل أن يمسك بها ويحملها ثم يلقى بها فى الماء وكانت ضحكاتهما الصاخبة تمتزج بصراخها.

لم يحضر "خالد" قبل العاشرة. تعانقنا طويلا.. سألتني
 عن أسباب حضوري إلى "شرم" وأوضحت له أنني في إجازة.
 - جميل.. تنزل عندي في الـ "أوتيل".
 - أنا رحمت بيت الشباب اللي في المدينة.
 - بيت شباب إيه يا عم؟ هتقعد معايا.
 - بعد يومين.. مش دلوقت.
 - اشمعنى؟
 - أهو.. فرصة الواحد يتعرف على البلد فوق..
 - يا ابني دي فرصة .. مراتي مسافرة دلوقت وأنا
 قاعد لوحدي.

- مراتك؟ انت اتجوزت؟
 - تقريبا..
 - تقريبا؟!
 - أيوه.. أصلى ما قلتش لأى حد.. واحدة ألمانية
 اتعرفت عليها هنا .. حبيتها.. واتجوزنا.
 - آخر حاجة ممكن أتصورها..
 - شفت بقه.. المهم .. إنت أخبارك إيه؟ لسه مكتتب؟
 - يعنى.. حصل شوية تطورات.. بس برضه قرقت
 أكثر..

خرجت إحدى الفتاتين من البحر بمفردها وهى تقترب
 فى اتجاهنا. بدا جسدها متناسقا وإن لم يكن له نحافة أجساد
 الأوروبيات. ولم تستطع القطعة العلوية من رداء البحر
 الأرجوانى أن تخفى إلا جزءا صغيرا من مساحة الثديها

النافرين، بينما تئاثرت قطرات المياه على الجسد ذى البشرة النحاسية بفعل الشمس، وعندما جاورتنا شعرت بأن نظراتها استغزائية.. محملة بشبهة ازدراء وشهوانية فجة. وبعد أن تجاوزتنا أقيت نظرة على رديها فهالني كبرهما. هتفت موجها كلامى لـ "خالد":

- إيه ده؟!!

- يا عم.. أنا راجل متجوز.

- من إمتى الكلام ده..

- آه والله باتكلم جد.. وبعدين ربنا يكفيننا شرهم..

- هى إسرائيلية؟

- أيوه طبعاً.. المهم أنا لازم أسبيك دلوقت لأننا

مسافرين "دهب" بعد شوية.. عندنا حفلتين هناك ممكن تيجى معانا إذا حبيت.

- لا.. لا.. أنا ما نمتش من إمبراح.. أنا هاستنى

واشوفك لما ترجع.

تناولت وجبة الغداء بمطعم بيت الشباب بسرعة، وصعدت إلى الغرفة. قابلنى "محمد" فى الردهة وأبلغنى بأن الغرفة ما زالت خالية. تناولت المنشفة متوجهاً إلى الحمام. تركت المياه الباردة تنساب طويلا على جسدى المنهك بفعل الإرهاق والحرارة الشديدة. شعرت بالاسترخاء. تذكرت الفتاة الإسرائيلية. تملكنتى شهوة مفاجئة . كانت ذاكرتى تحتفظ بأدق تفاصيل جسدها. لكن ، وقبل أن ألتذ مباشرة ، استدعيت صورة "هدى". ورحت لاهثا أتابع استحمامى.

استقبلنى جو الغرفة الرطب فازداد إحساسى بالانتعاش.
ارتيمت على الفراش ويبدو أننى استغرقت فى النوم بسرعة.
استيقظت مخدراً. أسرعت إلى الحمام وغسلت وجهى.
ارتديت قميصاً و"شورت" ونزلت إلى الطابق السفلى. وجدت
مجموعة من الشباب الأجانب تتوسطهم ثلاث فتيات التقوا حول
إحدى الطاوات بالمطعم مستغرقين فى مشاهدة أحد الأفلام
الأجنبية بالتلفزيون. طلبت شايًا وشربته بسرعة. نظرت إلى
الساعة فأشارت إلى العاشرة. سألت "محمد" عن موعد إغلاق
الأبواب فأخبرنى بأنهم يغلقونها فى الحادية عشرة .

نزلت من الباب الخلفى الذى يؤدى إلى سلم حجرى
يصل بين بيت الشباب فى أعلى التل وحتى الأسفلت المؤدى
إلى المدينة. لم أتحمس للذهاب إلى الشاطئ، فتوجهت إلى أحد
المقاهى الذى لمحتة فى أثناء نزولى من الأوتوبيس فى الصباح.
كان المقهى مزدحماً بملاح من كل مكان ، تناثرت حولهم
حقائبهم . اخترت طاولة بعيدة عن الزحام خارج المقهى وطلبت
من النادل قهوة ونارجيلة. لمحت الشقراء التى ناضلت لدخول
الحمام باستراحة السويس تجلس بجوار شاب أشقر متناسق
الملاح على الرصيف المقابل للمقهى. جلسا صامتين واجمين.
على أقرب طاولة بجوارى جلست، فتأتان وشت
ملاحهما المنمقة وعيونهما الضيقة وبشرتهما الحليبية بأنهما
من اليابان . كانت إحداها تدخن من علبة سجائر "مارلبورو"
بيضاء توسطت الطاولة بينهما. واستغرقت كل منهما فى قراءة
كتاب.

أحضر السنادل القهوة والنارجيلة ووضعهما أمامي بحماسة. التقتت "اللى" لأجذب أنفاسا متلاحقة من النارجيلة. من خلف سحب الدخان الأزرق التي نفتتها في تتابع لمحت الفتاة الإسرائيلية ومعها الفتى الأسمر يقتربان باتجاه المقهى. كانت الفتاة تضحك في صخب بينما اكتفى رفيقها بابتسامة أظهرها شدة بياض أسنانه.

أشار الفتى إلى زاوية داخل المقهى، وجذب الفتاة التي ما إن جاورتني حتى فاجأتني بذات النظرة الاستفزازية.. عدت ببصرى إلى الفتاة الشقراء على الرصيف المقابل فوجدتها ما زالت صامتة بينما مال إليها صديقها يهمس في أذنها. تناولت رشفة من القهوة وعدت أجذب أنفاسا متلاحقة.

شعرت بثقل أنفاسى بسبب الجو المشبع بالرطوبة، ولم تكن نسيمات الهواء التي تلمح وجهى بين أن وآخر قد تخلصت من حرارة النهار بعد. أحسست بالاختناق فتوقفت عن التدخين وتجرعت ما تبقى بقذح القهوة في رشفة.

أجفلت عندما سمعت بجوارى همهمات غامضة تبينت بعد لحظات أنها تخص مجذوبا جلس على الأرض غير بعيد عني، نظرت إليه فوجدته يحدق بى. نحيت نظرى عنه. كانت الفتاة الشقراء فى مواجهتى واجمة وهى تدفع ذراع صديقها عن كتفها فى تبرم واضح.

استمرار الهمهمات المثيرة للأعصاب بجوارى جعلنى ألتفتت إليه فى غضب فانفجر ضاحكا مما سعد من إحساسى بالتوتر. تغلب غيظى على فصرخت غاضبا:

- فيه إيه يا عم.. مالك.. انت هتسوق الجنان ولا إيه؟!
أحدثت كلماتي تأثيرا عكسيا فيما يبدو إذ أنها بدلا من
أن توقف الضحكات المستفزة جعلته يخبط بكفيه على فخذة وهو
يضحك في هستيرية. قمت وأنا أشعر بدق متواصل في رأسي
من شدة الغيظ وتوجهت إلى النادل داخل المقهى ونقدته ما
طلب. وفي أثناء خروجي التقت عيناى بعيني الفتاة الإسرائيلية
فشعرت بتوهج وجهي وخرجت مرتبكا. في خارج المقهى
كانت الفتاة الشقراء تبتسم في وداعة لفتاها الذي كان قد أخفى
وجهه بجوار أذنها بينما كفه الطليقة تداعب الفخذ العارية.

خرجت من درب الجنة وكأني مريض بالحمى. خفتت موسيقى الكهف قليلا ولم أكن استطيع رؤية أى شىء . تذكرت أننى نسيت المصباح فى حجرة السحرة . تحسست طريقي فى الظلام وأنا أسير ببطء فى ممر بدا ضيقا لأنه كان يضخم صوت خطوات أقدامى. من بعيد لمحت طيفا شاحبا لم أستطع تبيئنه. توقفت فجأة وحاولت أن أكتم صرخة إثر ظهور خيال لشخص ما. تراجع للخلف عدة خطوات فيما كان يقترب منى ببطء. ولم يتوقف إلا عندما وقعت على الأرض. أولانى ظهره وبدأ يسير عائدا غير أنه توقف بعد لحظات والتفت إلى. وتسلل إلى سمعى صوت أنثوى أسر وشديد الرقة: "هيت لك..."

وبتصاعد لهفة العاشق زادت حماستى وتسارعت خطواتى حتى نهاية الممر الذى انتهى بمدخل ضيق إلى اليسار. أغلقت عيني من شدة الضوء الذى يسطع فى الغرفة بتوهج. فتحت عيني تدريجيا وقلبي يقفز بين ضلوعى. كانت "نورا" أمامى بجمالها الأسر.. ترتدى غلالة شفافة تكشف تفاصيل جسدها النحيل الأثير. مدت إلى يديها فأقبلت عليها وأنا أهتف:

- نورا..؟!!

لم ترد على. وكان وجهها يسطح بإبتسامتها الطفولية .
اقتربت منها، لكن ما أن لمست يديها حتى صعقتني المفاجأة .
إذ تحولت فجأة إلى فراشة في حجم كف اليد؛ لجناحيها ألوان
حمراء مذهشة ، فيما علا صوت موسيقى الكهف، وبدأت هي
في ضبط إيقاع طيرانها مع الموسيقى في إنسيابية مذهشة.
انطلقت إلى خارج الغرفة وصوتها يتردد رقيقا وحازما:
"الواهمون لا مكان لهم في كهف العشاق".

* * *

خرجت متتبعا صوت الرفيف. بدت الإضاءة التي
تضيء الدرب أمامي كأنها تسقط من كوة في أعلى السقف.
ولاحظت أن السقف ينخفض تدريجيا حتى اضطرت في نهاية
الأمر أن أسير على ركبي ويدي. وهكذا تابعت حبوى لاهثا
ومتألما من صلادة أرض الممر تحت ركبي وخشونتها.

وصلت في النهاية إلى ردهة شديدة الاتساع مضاءة
بضوء خافت . ارتفعت الترنيمات تدريجيا بحيث صارت أعلى
من صوت الموسيقى. بعد لحظات ظهر أربعة رجال لملامحهم
قسمات طفولية، عراة إلا مما يخفى عوراتهم، وهم يتراقصون
مع الأنغام . ثم ظهرت أربع فراشات راحت تحلق حولهم كأنما
تبادلهم الرقص، وسرعان ما تحولن إلى أربع حوريات ذوات
جمال صاعق، عاريات تماما . أسندت ظهري لأقرب جدار
وجلست مبهورا أتابع الرقص.. الذي انتهى بتحول الجميع إلى
فراشات مرة أخرى . وقبل أن يخنفوا كان الصوت الملائكي

يتردد في أرجاء المكان.؟. "الواهمون لا مكان لهم في كهف العشاق". وشعرت بالإعياء مرة أخرى.. ولكنى لم أستطع مقاومة النعاس هذه المرة حتى غفوت.

* * *

استيقظت على صوت نشيج مكتوم. نهضت متثاقلا وأنا أحاول الاهتداء إلى مصدر الصوت حتى وقع بصرى على فتاة كالحلم.. أثار الدموع لا تزال تبلل العينين شديدتى الحزن. (فتحت عيني في الصباح فالتقيت بعينيك اللتين كانتا تشعان حنانا يغمرنى. كنا عاريين لم نزل. وحك الخمرى الناعم يدعونى لتقبيل الخد الأسيل قبل التوقف عند الشفتين الصغيرتين المكتنزتين..).

اقتربت منها قليلا وأنا أنادى عليها .. هند.. هند. لكنها ظلت تحرق فى أعلى السقف كأنها تطالع ملاكا أو تشكو أحزانها لطاقة نور فى السماء.. نفس النظرة ونفس الملامح.. ونفس الشكوى.. كأنما كانت عيناها تتطقان: أشكوك للسماء!

(.. قلت لى هامسة : أحبك .. وطبعت على شفتيك قبلة قبل أن نتضام فى سكون صامتين حيث لا حاجة إلى الكلام.. وعندما نهضت ووجدت ذراعيك يلتفان حول خصرى قبل أن تطبع شفثاك أسفل ظهري قبلة - هل أنساها أبدا؟! - التفت إليك أقبل شفتيك قبل أن أنهض قائما وأنا أضع يدي على سوءتى أخفيهما عنك - ألسنا من الجنة لتونا خارجين؟ - بينما دسست أنت رأسك تحت الدثار.. وكنت أعرف أنك تبيكين..)

حاولت أن أهرها فبدت جامدة كالصخر . كأنها قدت من حجر . ولكنها كانت تسدد إلى نظراتها تلك التي كاد قلبي أن ينخلع من شدة الحزن البادى فيها . حاولت أن أمسح الدموع عن وجهها فصارت نظراتها شديدة القسوة . تراجعت وأنا أتحسس البلل على إبهامى . قبل أن أفاجأ بظهور "الصلت" .. فصرخت :

- آه .. أين أنت؟ أنقذنى يا صلت!

بدت ملامح وجهه محايدة وكأنها لا تحمل أى تعبير

ونبرات صوته شديدة الهدوء :

- ماذا حدث؟

- أنا لا أعرف ماذا أفعل فى هذه المتاهة . كلما أوغلت

السير كلما أحسست أنى أبحث عن سراب . وكلما تصورت أننى

وجدت من أبحث عنها اكتشف أننى لم ألتق سوى بالأوهام .

- والآن ؟!

- هاهى حبيبتى تجلس أمامى . ولكنها لا تتحرك ولا

تجيب علىّ بشىء .

- هل أنت على يقين بأنها من تبحث عنها؟

- أنا لم يعد لدى يقين .. لكنها هى .. هى .

- أنت الذى تسبب فى أحزانها هذه؟

- لا .. لا .. أنا .. فقط .. يعنى .. أنا لم أقصد شيئاً .. لم

أشأ إيلاها قطعاً ..

- وماذا تريد منى؟

- أريد أن أسمع صوتها .

- لا صوت لها . ألم تفهم أنها كالحجر؟

- كالحجر؟! هل تعرفها؟

- هذه عاشقة عصفت بقلبها نزوة عشيق طائش.
جاءت تبحث عنه فى هذا الكهف. ولكنها بأست فاكتفت بأن
تكون ما فعله بها.. ارتحق روحها حتى جفت وصارت خاوية
وجامدة كالحجر.

قلبي يرتجف . أشعر بالهلع. أقاوم غصة مفاجئة . بينما
"الصلت" يسدد نظره إلىّ قبل أن يقول:

- لم يعد بإمكانك أن تفعل لها شيئاً على كل حال.
فتعال.. أسمع ما سأقصه عليك عليك تستفيد منه شيئاً.
انتشلتنى عينا "الصلت" من تأملى للغضون التى تحيط
بهما إذا أنه كان يسدد نظره إلىّ بقوة وهو يقول بصوت
ثابت:

- قبل أن أعرف الطريق إلى هذا الكهف كنت حفار
قبور. فهذا هو عملى الذى ورثته عن أجدادى تباعا. كنت أحفر
بهمة حريصاً على أن تكون الحفرة مناسبة لطول الجثة
وحجمها؛ إذ أذهب لرؤيتها أو لا قبل الحفر. ولم يكن مشهدها
يبارح خيالى طوال الحفر، ولا أهدأ أو يرتاح بالى قبل أن
ينتهى الأمر بإهالة التراب على الحفرة بعد أن أكون آخر من
شاهد الرحيل الأخير للكفن الذى ربما كان لأب أو لأم أو أخ أو
عشيقة غير أنه عندى لم يكن أكثر من جثة سينخرها الدود،
وعلىّ أن أحفظ كرامتها بالدفن.

وفى أوقات فراغى كنت أعبث بيدي فى الرمال أثناء
جلوسى فى منطقة القبور التى كنت أقضى بها كل وقتى تقريبا،

وهكذا كانت أصابعى تتسلل رغما عنى لتخط فى الرمال رسوما
وخطوطا لا معنى لها ولا هدف من ورائها . وبمرور الوقت
صارت يداى أكثر دربة ومهارة. ولاحظت أن التشكيلات بدأت
تأخذ أشكالا لأجساد كنت قد دققت النظر إليها فى نزعها الأخير
أو حتى بعد موتها أثناء الغسيل. أجساد لأطفال قتلهم الجوع أو
الوباء ، وكهول قهرهم الفقر والدين، وفتيات رحن ضحية غيرة
عمياء أو عودة زوج سكير قضى الشراب على عقله، وسيدات
أكل الدهر عليهنّ وشرب ولم يبق فيهن إلا هياكل عظمية
مغطاة ببعض الأوردة التى تظهر بالكاد خلف جلد الجسد
الشاحب الممتلىء بالتجاعيد والترهلات.

دُعيت يوما إلى منزل فى أقصى القرية. أدخلنى أهل
الدار، الذين فاضت وجوههم بحزن قائم كئيب، إلى غرفة بعيدة
عن باقى غرف الدار.

دخلت الغرفة ولم أشم رائحة الموت التى كنت قد
اعتدتها فى مثل هذه الحالات. وجدت جسدا نحىلا ممددا على
الفرش الذى توسط الغرفة، وعندما وقع بصرى على الوجه
تقلصت روحى، فلم يكن هذا إلا وجه ملاك كريم. وحق الله أنى
لم أر فى مثل حسن هذه الفتاة طيلة حياتى. ولم يستطع نحول
وجهها وشحوبه إخفاء حسنها، وحتى عيناها الرماديتان، اللتان
غارتا قليلا فى محجريهما بفعل المرض، تألقتا بنظرة طمأنينة
مدهشة وهى تتطلع إلينا بهدوء.

خرجت من الدار مسحورا . ولم تطاوعنى يدائى على الحفر لفترة طويلة. لكن خوفى القديم تغلب علىّ فى آخر الأمر، فليس هناك أسوأ مما يمكن أن يفعله الموت بجسدها.

كنت أنتظر كل يوم أن يأتينى خبر موتها فيما يصارعنى أمل المقامرين بأنها قد تتجاوز محنتها وتنتصر على المرض والموت. وفى أوقات شرودى شرعت، ودون وعى منى ، بتشكيل جسد يماثل جسدها. وعندما انتهت إلى ذلك رحبت أتابع ما أفعله بحرص ودقة شديدين. كانت ملامحها محفورة فى خيالى، ومع ذلك فقد أجلت تشكيل الوجه بعد أن انتهى من تشكيل الجسد كله. وقبل أن أنتهى من ذلك فوجئت بالخبر المشؤم الذى حملته إلى أختها الصغرى . جاءت ملتحفة بالسواد يطل من عينيها الرماديتين حزن مخيف. قالت فى نبرة محايدة ودون أدنى انفعال:

- تعال.. خذ حياتى إلى مثاها الأخير. وانصرفت عنى وهى تسير ببطء شديد.

لم أستطع إخفاء دموعى للمرة الأولى وأنا أضع الجثة الخفيفة، وبحرص، شديد إلى داخل الحفرة دون معاونة من أحد كما أننى لم أستطع أن أكبت نحيبى الذى غافلنى وأنا أهيل عليها التراب.

ولكنى لم أستطع معاودة العمل بعد ذلك أبدا. كما حرصت على الابتعاد عن منطقة المقابر خشية الوقوع لأسر الهاجس الذى كان يلح على لفتح القبر.

فى الليل كنت أسير فى الخلاء غير عابئ بأى شىء .
وبلا هدف حتى ينهكنى التعب فأقع مغشيا علىّ، ولكنى كنت
أستيقظ على صوتها يتردد من حولى فى كل مكان "تعال.. خذ
حياتى إلى مثواها الأخير" وأنهض مفزوعا.. أنادى عليها
متخبطا هنا وهناك.. ولكن لا مجيب.

تذكرت النحت الذى كنت بدأتها لها بالطين . فأسرعت
إليه.. وتابعت عملى فى تشكيل القدمين . وعندما انتهيت
صرخت فرعا إذ أن الجسد كان مشابها تماما لذلك الذى رأيته
ممددا هناك على الفراش. بعدها شرعت فى نحت الوجه.
لاحظت أن يديّ تتحركان بشكل غريب كأنما تمتثلان لأوامر
قوى خفية فلا تزيد قوتها ولا تقل عما يتطلبه أن يبدو كل شىء
متمائلا. العينان الواسعتان والأنف الدقيق والشفقتان المرسومتان
بعناية ، والذقن العريض قليلا على رفته. وعندما انتهيت
ودققت النظر فيما صنعت يداى ففزت مبتعداً عنها. فقد بدا
مطابقا لها تماما، حتى نظرة العينين اللتين كانتا تتطلعان إلى
بنفس الهدوء وتبعثان نفس الشعور بالطمأنينة.

سرت متجها إلى الخلاء حتى أعيانى التعب . شيدت
كوخا من الخشب والطين. شرعت بعد ذلك فى نقل الجسد الذى
صنعتة من الطين إلى هناك. أعددت بما تيسر لى من أعشاب
الصحراء والقش الذى أحضرته من القرية فراشا مددت الجسد
عليه ، أتأمله فيما تجيش فى أعماقى أحزان لم أعرف مثلها فى
حياتى، وتناوشنى عواطف كانت تفيض بالرغم منى فتدفعنى
لمحادثتها وكأنها مخلوق حقيقى. حكيت لها كل شىء عن حياتى

وأُمى البائسة التى فقدتها فى طفولتى، وعن جدى الذى كان يحفر القبور بيديه دون الاستعانة بأى أدوات حتى أطلقوا عليه اسم "الغراب"، وأختى التى سحروها فراحت تقتل أولادها تباعا حتى اضطر والدى إلى قتلها وصارت تظهر له فى أحلامه كل ليلة حتى مات.

ولكنها لم ترد بشيء .. فقط تنظر إلى نفس النظرة وبنفس الهدوء مما كان يدفعنى للصراخ متوسلا إليها أن تنطق بأى شىء أو على الأقل أن تتوقف عن النظر إلى. أحسست أننى موشك على الجنون. وبدأت فى الخروج إلى الخلاء طوال النهار دون أن أتوقف عن مناجاتها كأنتى على يقين من أنها تسمعنى ، أحدثها بكل ما يجول فى عقلى، وما أستطيع أن استدعيه فى ذاكرتى . وفوجئت بأن صوتها بدأ يتسلل إلى ويحيط بى من كل اتجاه ويتردد بلا انقطاع مما جعلنى أفكر فى أن أقتل نفسى للخلاص من هذا الوسواس "تعال.. خذ حياتى إلى مثواها الأخير..".

قلت أن الحل الوحيد هو أن أعود وأحطم ما صنعته فينتهى كل هذا العبث.

دخلت الكوخ اقتربت منها لألقى عليها نظرة أخيرة قبل أن أبدأ فى تحطيمها. تأملت عينيها فراغى البريق الذى ينبعث منهما ، ولاحظت أن لون الطين البنى الداكن قد تحول إلى لون أبيض صاف كالحليب. وعندما لمست يديها هالنى أنهما ناعمتان كالحرير.

ألقيت بنفسى بعيدا عنها حتى راتطمت بجدار الكوخ.
ابتسمت إلىّ قبل أن أسمع صوتها هامسا كالحلم:

- لا تخف يا صلت.. ها أنا ذى قد عاودتتى الحياة
التي بعثتها أنت فى من روحك وفرط حبك. كنت أسمع مناجاتك
من مكانى البعيد وأنت تستدعينى بأفكارك وقوة عشقك التي
جعلتنى أخلق فى كل مكان بحثا عنك وانتفض بالحنين إلى
مناجاتك والصدق الذى تقيض به نبرات صوتك التي لم أسمع
ما شابهها فى حياتى أبدا. أنادى عليك وأنا أكاد أتمزق خوفا من
أن تفقد صبرك ويحل اليأس فى قلبك.

ولا أعرف ماذا قلت لها، ولم يكن أمامى مقر من
تصديق ما أراه أمامى، فما هى تقف بشحمها ولحمها وروحها
وصوتها أمامى. غير أننى لم أستطع تقبل الأمر ببساطة رغم
كل شيء.. فكيف يتحول ما صنعتته من الطين إلى هذه الفتاة
الساحرة التي أذاقتنى من فنون العشق وألوانه ما لم أراه فى
حياتى أبدا؟ ولم يكن أمامى فى آخر الأمر إلا أن أصدق وأن
أعيش حياتى الجديدة التي قدرها الله لى . وقررنا أن نرحل إلى
قرية بعيدة لا يعرفنا فيها أحد لنبدأ حياتنا الجديدة .

وبالفعل انتقلنا إلى قرية بعيدة تطل على الساحل،
وهناك بدأنا حياتنا. تعلمت الصيد وصار هو مصدر رزقى
وتألفنا مع حياتنا الجديدة، إلى أن جاء يوم كنت أجلس خلال
نهاره فى السوق أبيع ما رزقنى الله به من فيض البحر حتى
فاجأنى صوت صراخ كان يقترب منى تدريجيا .. "أنت

الصلت.. أنت الساحر.. لعنة الله عليك.. أنت الذى غيبت
"محبوبة".. أنت الذى سحرتها. يا كافر.. أين هى؟ أين؟
"كان هذا هو أحد اخوتها. وتصلب الدم فى عروقى وقد
فاجأنى ظهوره فى ذلك الليل البعيد. وبعد مناوشات ومعركة
بالأيدي وشد وجذب وصخب وسط زحام السوق الذى التفت كل
من به حولنا استطعت الهرب.. أسرعت إلى "محبوبة"..
وهربت معها لا نعرف أين نذهب.. عشنا فى أحد القوارب عدة
أيام. ونمنا فى العراء بالصحراء ليال لا أعرف كيف احتملنا
قسوتها. تنقلنا بين مداخل الكهوف وعلى ضفاف الوديان حتى
استطعنا فى النهاية أن نصل إلى تل عال اكتشفنا أن أهله قد
هجروه ، وقررنا أن نبقى به حتى نرى ما يكون. وبمرور
الوقت بدأت فى الهبوط بالنهار إلى الوادى لاصطياد ما قد يوجد
به الوادى والعودة ليلا وهكذا. إلى أن عدت يوما لأفاجأ بها
جالسة تحديق إلى بفرع . ناديت عليها فلم ترد. لمستها.. كانت
باردة كالثلج وملمس جسدها صلبا كالصخر. حاولت ما فعلته
سابقا غير أن شيئا لم يجد، ولم تفلح كل مناجاتى لأيام وليال
متعاقبة أن تغير من الأمر شيئا.. وأدركت أنهم سحروها. كاد
الحزن يقتلنى عما عليها وأتيت بها إلى هنا.. إلى هذا الكهف.
لا تتدهش.. هى الآن تجلس فى هدوء تماما كما هذه الفتاة التى
تجلس أمامك.. هل تريد أن تراها..؟ تعال.. تعال معى..

سرت خلف "الصلت" وكأنى قد نومت مغناطيسيا
وفقدت إرادتى نهائيا.. كان كل شىء يبدو غريبا إلى الدرجة

التي جعلتني أشعر بفزع حقيقي وتختلط كل الأمور على
ويتشوش ذهني.

اقتربنا من الردهة الواسعة التي تتوسطها فتاة نحيفة
شديدة الجمال تنظر إلينا بهدوء رغم الفزع الذي يطل من
عينيها. ارتفعت ترنيمات الكهف إلى أقصى حد لها، بدأ
"الصلوات" يضحك بشكل هستيري. ترتفع ضحكاته تدريجياً..
حدقت في عيني الفتاة أمامي مذهولاً وقد ارتفعت نبرات صوتها
لتعلو كل الأصوات الأخرى : (الواهمون.. لا مكان لهم في
كهف العشاق).

انتشلتني الطرقات المتتابعة على الباب من النوم فانتفضت . أتانى صوت "محمد" من خلف الباب. نظرت إلى الساعة. أشارت إلى الثامنة. سمعت صوتي محشرجا وأنا أتمتم: شكرا يا "محمد".

التقطت سيجارة وتناولت علبة الثقاب متثاقلا. وضعت المنشفة على كتفي وخرجت أقصد الحمام. عندما جلست على الإطار البلاستيكي أشعلت السيجارة. عندما انتهيت خلعت ثيابي ووقفت تحت المياه الباردة.

نزلت إلى المطعم. تناولت إفطاري بدون شهية وشربت شايًا قبل أن أغادر بيت الشباب قاصدا الشاطئ وحملت في يدي كتابا.

عندما وصلت إلى الشاطئ توجهت إلى فندق "هيلتون الفيروز". تذكرت في اللحظة الأخيرة أن "خالد" لن يحضر قبل المساء. كان الشاطئ خاليا كعادته في هذا الوقت من الصباح الباكر إلا من فتاتين افترشتا منشفتين على الرمال بجوار مياه البحر، ممددتين وهما تعرضان ظهريهما للشمس التي لم تكن قد احدثت بعد، عاريتين إلا من قطعتي المايوه اللتين تغطيان جزءا يسيرا من الأرداف.

على امتداد الشاطئ المقابل للفندق تناثرت الكراسي
والشمسيات. اخترت أحد الكراسي القريبة من مياه البحر ذي
الأمواج الخافتة وجلست .

نهضت إحدى الفتاتين فاصطدمت عيناى بمشهد الثديين
الكاعيين ولكنى حولت عيني عن المشهد العذب بسرعة،
وسمعت ضحكاتهما فالتفت صوبهما بطرف عيني فوجدتهما
ترتديان الجزء العلوى من المايوه قبل أن تتوجها إلى مياه
البحر.

حضر نادل تابع للفندق ليسألنى عما إذا كنت نزيلا به
فأجبت بالنفى، فأوضح أن الشاطئ مخصص لنزلاء الفندق فقط.
ابتسمت له مرتبكا واعتذرت لعدم معرفتى بذلك.

توجهت إلى كافيتيريا تقع بجوار الشاطئ الخاص بفندق
"مارينا شرم الشيخ". بار صغير تمتد أمامه مساحة مبلطة تتخذ
شكل نصف دائرة تناثرت عليها مجموعة من الطاولات التي
تعلوها الشمسيات. ترتفع هذه المساحة عن مستوى الشاطئ بعدة
درجات.

طلبت من الشاب الأسمر الفارع الطول الدائم الابتسام
كوبا من الشاى. ناولنى إياه فتوجهت به إلى إحدى الطاولات
وجلست فى مواجهة مياه البحر. استقرت فى مواجهة مظلتان
كبيرتان من الخشب والحوص على هيئة نجمة تأخذ كل منهما
مساحة ضخمة من رمال الشاطئ.

ارتشفت من كوب الشاى البلاستيكى رشقات متلاحقة
وأنا أتأمل غلاف الكتاب المكتوب عليه "المهاربهارتا".

((.. كان السكون يعم هذا المكان الذى اتخذه شوناكا فى أعماق الغابة بعيدا عن المعمورة ، فلا يقطعه سوى ما يتناهى من بعيد، من عواء ذئب يبحث عن طريدة، أو جلبة يحدثها أرنب يقفز هنا وهناك فى حمى الأدغال، أو نعيب يوم على غصن شجرة يتحين عشاءه من مخلوقات الغابة، ولم يكن ضوء القمر يبدد عتمة الليل..)).

اجتذبتنى إيقاعات هندية صدرت فجأة من جهاز "الكاسيت" الكبير المجاور للفتى الأسمر فنظرت باتجاهه. خفض الصوت قليلا ليسألنى .. "مش عاجباك؟" فأشرت إليه بإبهامى الذى رفعته بعد أن ضممت باقى الأصابع وهزرت يدي مرتين. ابتسم وهو يضع أمامه زجاجتى بييرة فى حماس قبل أن يولبنى ظهره وهو يتمايل مع الموسيقى المناسبة.

(.. الفتاة السمراء ذات الشعر الأسود الفاحم المنسدل حتى ردفها. ملامحها تشبه "فيروز". انساب اللحن ذو الإيقاع الهندى فتسللت من أحضانى. اكتست عيناها بنظرة غريبة حالمة.. وادعة.. بينما تلتمعان ببريق أخذ، بدت كأنها مجذوبة بقوة خفية وصوت لا يسمعه غيرها إلى عالم له عندها سحره الخاص. الموسيقى صارت صاخبة والصوت الأنثوى المختلط بها يتفجر بشجن خاص لا أفهم منه شيئا. الفتاه تبسّم للملاك المائل أمامها فى عذوبة .. تتمايل. ترفع شعرها بإحدى ذراعيها.. تدور فى انسيابية. تخلع ثيابها بنشوة حتى آخر قطعة وهى تتراقص فى وله وتتحسس جسدها فى عشق دون أن يتوقف الرقص الذى بدا متناغما

كأنما يذوب الجسد تماما فى الأبحان لبحونا لحننا واحداً
أسطورياً. الجسد الخمرى المتناسق تلتمع نعومته بانعكاس
الضوء الخافت عليه. تنتظم الخطوات الرشيقّة مع الإيقاع فى
تناغم وانسيابية. يتداخل الناي الحزين مع اللحن الصاخب
الإيقاع فترتجف روحى بينما ينساب الجسد يمنة ويسرة فى
دلال. تنسال دمعتان لا ألمهما إلا عندما تترقرقان على
الوجنتين. تلقى بنفسها على الأريكة. تتكور وهى تسند رأسها
على كتفها.. ويهتز الجسد الآن فقط على إيقاع داخلى..
لنشيج مكتوم.. كأنه يخفى ما لا يمكن معرفته أبداً..).

انتبهت على صوت صراخ أنثوى. رأيت شخصا يلوح
من وسط مياه البحر. اختفى الصوت عندما ارتفع صوت
الموسيقى مرة أخرى. خلعت قميصى وألقيت بنفسى فى المياه
حتى اقتربت منها. كانت تلهث وهى تأن أنات متتالية وعلى
وجهها ملامح ألم شديد. أخبرتنى بأن إحدى قدميها تمزقت
بسبب ارتطامها بالشعب المرجانية ، جذبتها حتى الشاطئ .
نظرت إلى قدمها اليمنى فوجدتها مهترئة من شدة التمزق بينما
يتدفق الدم بغزارة أصابتنى بالفزع، فأسرعت أركض باتجاه
الشاب الأسمر الذى كان يرقبنى من بعيد، سألته إذا ما كان لديه
قطن وشاش فقال إنه يحتفظ بالقليل منها للطوارئ. أعطانى
كيسا من القطن ولفافة شاش أسرعت بهما مرة أخرى إلى
الفتاة. طلبت منها أن تضع قدميها فى مياه البحر قبل أن أبدأ فى
تضميد الجرح بالقطن وأتبع ذلك بلف قدمها بضمادات
الشاش.

اتكأت على كفتى وهى تقفز على قدم واحدة حتى
وصلنا إلى حيث كنت أجلس. انتزعتْ ابتسامة من ملامح
وجها المكتسبية بالألم وهى تلهث:

- أشكرك جدا.. مش عارفة من غيرك كنت ها أعمل
إيه..

سألتها إن كانت تفضل أن تشرب شيئا فطلبت قهوة،
وطلبت أنا أيضا قهوة.

كانت ترتدى "مايوها" أزرق من قطعة واحدة وكنت
أحاول جاهدا أن أتذكر أين رأيتها من قبل؟ العينان العسلتان
الواسعتان والبشرة القمحية . وتذكرت . قلت لها:
- إحنا اتقابلنا قبل كده؟

ضيق عينيها قليلا ورفعت أنفها وهى تبتسم كأنها
تحاول أن تتذكر.. قبل أن تهز رأسها دليلا على عدم تذكرها
فقلت:

- فى الاستراحة.. بالسويس.

- أه.. أيوه.. أيوه افتكرت.

- أمال فىن صاحبتك؟

- لسه نايمة.. أنا باحب أنزل الصبح بدرى أتمشى
شوية وبعدين أنزل البحر.

- جميل.. بس على فكرة أنا عندى إحساس إنك مش
مصرية رغم إنك بتتكلمى مصرى كويس.

ضحكت وهى تقول:

- طيب.. عرفت إزاي ؟

- مش عارف.. إحساس.. أو يمكن شكلك..
- إزاي يعنى؟
- يعنى لما شفتك فى الاستراحة قلت الأول إنك أجنبية
بس ما كنتش متأكد. يعنى افتكرت إنك ممكن تكونى جزائرية..
مغربية... حاجة زى كده.
- طيب ودلوقت؟
- مش عارف.. ممكن تكونى نص مصرية ونص
حاجة تانية... أوروبا مثلا..
- لا يا سيدي.. أنا أصلا عُمانية.
- عُمانية؟
- أيوه.. ما تعرفش عُمان ولا إيه؟
- لا.. أعرفها.. وأعرف أنها بلد جميلة جدا..
بيقولوا إن الطبيعة فيها مدهشة.
- أيوه.. دا صحيح. بس ماما فرنسية.
- آه.. يعنى زى ما أنا قلت فعلا.. بس إزاي بتعرفى
تتكلّمى مصرى كده؟
- يعنى.. أنا فى المدرسة كان معظم اللى كانوا
بيدرسونا مصريات وكما كان لى أصحاب كثير من مصر.
- فعلا؟
- أيوه.. أنا باحب المصريين جدا..
- وجاية "شرم" ليه.. سياحة ولا شغل؟
- لا.. أنا جاية أجازة..
- وانتى عايشة فى عُمان ولا فى فرنسا؟

- لا.. أنا دلوقت عايشة فى فرنسا.
 - بتدرسى؟
 - أيوه.. بحضير دراسات فى الأدب الفرنسى.
 - هایل..
 - وأنت؟
 - أنا أصلا كنت بلاشتغل رسام.. يعنى رسام كاريكاتير
 فى جرتال. وباعمل أنا شغلى الخاص.
 - ووجيت هنا ليه؟
 - .. برضه حاجة كده زى أجازة.. قرقت من الحياة
 فى القاهرة . الزحمة والروتين ويعنى أسباب خاصة تانية ..
 ففكرت إنى أجي هنا.. أصل أنا لى والحد صاحبى بيشتغل هنا.
 وقع بصرى فى أثناء حديثى على ما بين نهديها.
 فحدقت بعينى بثبات بينما رفعت إحدى يديها وهى تقفل أنها
 تحك رقبتها فارتبكت .. وتوهج وجهى قليلا. أشرت إلى الـ
 "تى شيرت" الملقى على الكرسي والذي كنت قد خلعتة قبل أن
 أنزل إلى البحر وقلت لها:
 - ممكن تلبسى الـ "تى شيرت" ده. الشمس بدأت تشد
 شويه.

فنظرت باتجاهه مترددة ثم قالت:

- لا.. لا.. مافيش مشاكل.

قلت لها:

- وانت فى عُمان بقه بتلبسى ايه؟

ابتسمت وهى تقول:

- ايه إزاي يعنى؟

ثم انفجرت ضاحكة وهى تشير بإبهامها على امتداد
جسدها

- لا.. مش كده طبعاً.. بس عموماً فى عُمان الأمور
مش زى السعودية .. يعنى عادى. أنا بلبس جيبات وفساتين
وبناطيل عادى. وبدون حجاب. لكن البنات لسه ما اتخلصنش
من التقاليد وكثير منهم بيلبسوا عبايات وحتى الشباب بيلبسوا
الزى التقليدى.

- أه.. يعنى مش زى السعودية بس مش لدرجة
الكويت مثلاً.

- بالضبط.. بس تعرف أنا اكتشفت إن بلدكم جميلة
فعلاً..

- أشكرك .. إنت أول مرة تيجى هنا؟

- أيوه.

- وأنا كمان.

ضحكت وهى تقول

- قصدك جنوب سينا؟

- أيوه .. ما كنتش متخيل إن فى مصر أماكن بالجمال

ده. بيقولوا إن "ذهب" و"طابا" كمان أماكن جميلة.. رحتى؟

- لا.. لسه .. لكن عاوزه أروح.

- الواحد بيحس هنا إنه كأنه انتقل من مصر إلى بلد

تانى

- أنا مررت على القاهرة لمدة يومين قبل ما أجي هنا..
بس انطباعك حقيقي.. يعنى الحياة هنا مختلفة.. يمكن أبسط
وفيها حرية أكثر.

أحضر النادل القهوة مبتسما كعادته قبل أن يعود
أراجاه وهو يتحرك بسرعة ، أومات باتجاهه وهى تمسك بقدر
القهوة البلاستيكي بعد أن ارتشفت منه رشفة قائلة:

- شخص غريب شويه.. مش كده؟

- أيوه.. بس لطيف.. مش عارف جايب منين
الإحساس الغريب ده بالسعادة؟

التقت عينانا للحظة. ولكنها كانت كافية لألمح طيف
حزن شاحب أطل من عينيها كومضة. قالت:

- مش عارفة ليه ما باقدرش أصدق ملامح الناس.
بحس دايمًا إن فيه وراها حزن مافيش أى حد تانى يقدر يحسه
أو يفهمه.

ابتسمت لها قبل أن أطبق شفتى على بعضهما وأهز
رأسى مؤيدًا. وانتبهت فجأة أنني لم أعرف اسمها حتى الآن
فقلت لها:

- تخيلي إني ما عرفتش اسمك لغاية دلوقت!

ضحكت وهى تقول:

- أيوه.. صحيح .. أنا اسمى "بتول"، وانت؟

فأخبرتها عن اسمى.

سمعت فجأة نداء لصوت أنثوى غير بعيد عنا وباقتراه
تدرجيا اكتشفت أنها صديقة "بتول" التى رأيتها معها فى

الاستراحة. وعندما اقتربت منا وقع بصرها على قدم "بتول"
صرخت:

Oh, mon Dieu ! qu ce que pass? -

وأجابتها "بتول"

rien .. rien ثم أردفت بالعربية

إيش فيكى؟ هذا جرح صغير.. وهو اللي انقذنى.

أشارت إلىّ وهى تقول كلمتها الأخيرة.

تصافحنا أنا وهى. عرفتنى اسمها قائلة: اسمى "أحلام".

وبعد حوار قصير قالت "بتول" إنها تشعر بالتعب وإنها تفضل
العودة إلى الفندق لتستريح. وقبل أن تذهب أخبرتنى برقم
الغرفة التى تقيمان بها وهى تقول:

- ممكن تمر فى أى وقت. تعال المسأ أشرب معانا

شأى لو مش عندك ارتباطات.

شكرتها ووعدتها بالمحاولة.

عدت أتابع القراءة فى الكتاب فور انصرافهما وأنا

مشغول تماما ببتول.

]]... كانت الفتاة مليحة القسمات، جميلة الوجه، ذات

قوام فتان، فاضطرمت الرغبة فى أعماقه واستبدت به، فراودها

عن نفسها: يا بنة السحر لقد فتننت بك وطغى على الوجد، أفلا

تقبلين بى لأودعك حبى وشوقى.

هلعت الفتاة إذ وجدت هذا الشيخ المهيب يبرز أمامها

كأنه ولج إليها من أبواب الغيب ويخاطبها بما لا تقوى العذارى

على سماعه فقاطعته بصوت متحشرج به أثر من الذعر: كيف

يكون ذلك أيها الشيخ وما زلت عذراء فى طاعة أبى، ولم يمسنى بشر. ولم أعرف المعصية من قبل؟ رد الشيخ وكان كلماتها وقعت على أذن صماء: هيا يا فتاة.. فليس فى هذا زلل أو معصية معى وأنا الشيخ الزاهد ، هيا يا فتاة فلقاؤنا لقاء الأقدار!

تضربت وجنتاها بحمرة الخجل، وتابعت عباراتها لا يخفف من وطأة الوجل ما سمعت من ذلك الشيخ من عبارات بدرت وكأنما قصد بها أن تهدئ من روعها.. ويلى.. ويلى. كيف يخفى الأمر بعد هذا والناس شهود من حولنا على هذا الذى تبغى.

فرد الشيخ ذراعيه فثار ضباب عظيم لفهما معا، وإذ تلاشى عاد كل إلى حاله وكان أمرا لم يقع. ولكن ذلك ما كان ليخفف من اضطراب الفتاة "ستيافانى". وأخذت الأفكار تنتابها من كل طرف ولا تدري ما سيكون حالها بعد اليوم..[[.

ظهرت لى "تورا" من بين السطور بوجهها الأليف تبتسم فى طفولية. أشعلت سيجارة. وطلبت زجاجة بيرة من النادل. نحيّت الكتاب جانبا وأخرجت دفتر مذكراتي ورحت أقلب فيه قليلا..

".. كل الطرق المسدودة بينى وبين نورا قادتى إليها فى آخر المطاف. ذابت الحدود وانتهى سوء التفاهم واختلاف الرؤى والإحساس المتبادل باختلاف التركيب النفسى . انتهى كل هذا لتحل محله مودة ورقة وبهجة باللقاء ومناقشات اتسمت على جديتها برومانسية مذهشة".

سألت نفسي ألف مرة .. لماذا أحبها؟ ولم أستطع الإجابة على السؤال. قلت ربما لجمالها الأسر أو لطريقتها فى الحديث ومداعباتها الرقيقة أو لأنها موهوبة ولأننى معجب بطريقتها فى الرسم. وربما لأننى أعجبت بقدميها الجميلتين الصغيرتين عندما رافقتها فى إحدى المرات لشراء حذاء جديد وأثارتنى أنامل قدميها الرقيقة المطلية بطلاء أحمر مبهج.

أحاط بى سؤالى مرة أخرى .. ماذا تريد؟ سؤال يبدو بسيطاً غير أن إجابته كانت على العكس شديدة التعقيد. أعرف أننى غير مؤهل لمعايشة حالات الجذب العاطفى. إذ تتدهور حالتى النفسية ويزداد اضطرابى لدرجة تجعلنى لا أستطيع التواصل مع الآخرين.

استقرت فى أعماقى حالة من الخوف الغريزى من فشل التجربة فى المستقبل. وخشيت أن أتعلق بها. فليس هناك ضمانات من أى نوع. ألم أشهد بنفسى حالات حب متوهجة تنهار فى لحظة وأحياناً ببساطة شديدة؟!

وامتزجت مخاوفى بهاجس تجربتى مع "هند". ذلك الهاجس الذى يثير بداخلى مشاعر متناقضة تثور معها الأسئلة مرة ومرات . لماذا انتهت هذه العلاقة إلى ما انتهت إليه؟

كيف وانتتى الجراً على اتخاذ مثل هذا القرار. إنهاء علاقة تحتوى كل أسباب النجاح ومحاطة بهذه القدرة المدهشة لتفاهم كائنين طوال أربع سنوات كاملة؟ كيف يمكن توصيف ذلك؟ هل كنت أحبها حقاً؟ وإذا كان ذلك صحيحاً فلماذا تحول فجأة إلى تلك الرغبة فى عدم الارتباط بها. أين يكمن الخطأ؟

فى العلاقة ذاتها وطبيعتها . أم فى تراكم الاختلافات المستمر .
اختلاف الرؤى . إصرارها أن كل مشاكلها ستحل بالزواج وأن
كل احتياجاتها الخاصة ومشروعاتها مؤجلة إلى ما بعد الزواج :
لا أعرف . ربما يكمن الخطأ فى أنا النازع إلى المثالية
المستحيلة والكمال المطلق أزمى الأبدية وحلمى المستحيل .
عندما أحضر النادل البيرة شكرته قبل أن أسأله عن
اسمه ، فأتسعت ابتسامته كثيرا وهو يقول : سعيد .

- اسم على مسمى فعلا .

ابتسم ولم يعلق

ارتشفت رشفة من البيرة قبل أن أعاود القراءة : ..
وهل يحتاج هذا الإطار إلى مواصفات خاصة . وهل هناك
أساسا مواصفات خاصة مسبقة أم أنها محض اختلاق لأوهام
غير موجودة ؟

ولكننى فى النهاية لم أجب على السؤال . خشيت أن تفقد
العلاقة بريقها ونلقائيتها باختلاق مبررات قد تكون كلها وهمية .
وهكذا أضفت إلى المبررات عاداتها الجديدة إدخال يدها فى
جيب البنطلون لتقرصنى فى ملتقى الحوض بأعلى الفخذ ونحن
نسير فى الشارع . ورحت أردد بعدها أحبها لأنها موجودة . نعم
أحبها لوجودها هذا الذى يبهجنى تماما دون غيرها .

أما هى فقد بدأت فى ارتداء الأقنعة ربما لتختبر قدرتى
على اكتشاف خباياها أو لتخفى الفراغ الذى تهيم روحها فيه .
كانت دائما تحاول الحفاظ على إحاطة نفسها بهالة من
الغموض .. "

قلبت الأوراق قليلا.. قبل أن أتابع القراءة:

".. أسرتنى نورا بحبها.. بلفتاتها الرقيقة ورومانسيتها الشديدة.. بعد خروجنا من السينما أشارت إلى الخلف فى محاولة منها للفت نظرى . عندما التفت إلى حيث أشارت وقعت عيناي على مشهد رائع للغروب يرتسم فى خلفية كوبرى الدقى فى الأفق البعيد.

وفى المطعم الذى اعتدنا الجلوس فيه بشارع هدى شعراوى همست لى عاوزه أبوسك.
قلت لها مبتسما: أنت حرة.

امتزج بريق الحب بالخجل والجنون فى العينين السوداوين الأسرتين وهى تتطلع حولها قبل أن تطبع على وجنتى قبلة خافتة، فتشتعل كل الألمان الطفولية القابعة فى أعماقى وأحتضنها بعينى وأنا أومئ لها باتجاه الكاميرا المعلقة فى الزاوية المواجهة لنا، فتضع كلتى يديها على رأسها خجلا ونغرق فى الضحك. فى أحيان أخرى كثيرا ما تتحول إلى شخصية شديدة التوتر والعصبية وبدون أسباب واضحة تثور لأسباب تافهة، وتبدأ فى إثارة المشاكل بعد أن تستمر حالتها هذه لعدة أيام أفقد خلالها صبرى.

كانت تتتهز الأوقات التى نقضيها معا فى شقتى لتمارس بكاءها الصامت الذى يتصاعد تدريجيا الأمر الذى يصيبنى بإحساس قاتل بالعجز حاولت تعويضه بالحنان دون جدوى. وفى خلواتنا هذه كانت تترك لنفسها الحرية فى التعبير

عن حبها قبل أن تطلب منى ألا أتخلى عنها وهو ما كنت
أهمس به إليها وأنا احتضنها فى حنو بالغ..".

· نحييت الأوراق جانبا. تجرعت ما تبقى من قدح البيرة
أمامى. أحسست باختلاط مشاعرى .. لم أتخل عنك يا نورا أبدا
فماذا فعلت أنت؟! عند أول منحدر أسرعت بالركض وبأقصى
سرعة ألقيت بنفسك إلى طريق لا أعرف عنه شيئا بينما أقف
وحدى فى الطريق .. بلا قدرة على إدراك هذا العبث. تتدمر
روحي تدريجيا بينما أعجز عن إصلاح ما يتمزق ويهترئ يوما
بعد يوم.

ألن تنتهى هذه الرغبة المدمرة فى تعذيب النفس أبدا.
إلى متى سأظل أعايش هذه الأوهام والهواجس .. إلى متى؟!
لملمت أشيائى. لوحت لسعيد مودعا وأنا فى طريقى
إلى بيت الشباب.

وكما جاء "الصلت" فجأة رحل فجأة تاركا إياي لوحدي، وذهولي مما حكاه ، ومما رأيتُه بعيني ، وخرجت لا أُلوى على شيء . لا أعرف أين تقودني خطاى!؟ .
وبدا الطريق طويلا.. ممتدا أحيانا وملتويا فى أحيان أخرى.

تناهت إلى سمعى أصوات أهات وأنات اكتشفت لاحقا أنها تخص أشخاصا افترشوا الأرض بينما تتضح ملامح وجوههم بالألم أو الإرهاق والتعب. حاولت أن أسأل أيا منهم عن أسباب وجوده فى هذه المتاهة أو على الأقل أن يدلنى على نهاية الطريق. غير أنهم كانوا يلتفتون إلىّ فى ذعر يحملون فى وجهى شاردين ثم يعودون إلى ما هم فيه.

فى منتصف الطريق تعثرت إثر ارتطام قدمى بما بدا كأنه جسد آدمى تكوم بجوار الجدار الذى أسير بمحاذاته. سمعت اسمى فأجفلت وكان الصوت الواهن يشد قليلا. رأيت الجسد مسربلا بالأسود ملقى على الأرض بلا حركة. عندما اقتربت تبينت من الصوت الذى صارت نبراته أكثر وضوحا أنه يخص أنثى سألتنى بوهن:

- أخيرا حضرت؟!!

أخرجت من حلقى همهمات غامضة إذ أننى لم أكن أفهم شيئا.

تأوهت بشدة فيما كنت أحاول مساعدتها على النهوض وهى تضغط بأسنانها العلوية على شفتها السفلى. تأملت عينيها فراعنى جمالهما. لم تكن عيناها السوداوان واسعتين غير أنهما كانتا تلتمعان ببريق أخاذ ، ويزداد التماعهما كلما حدقت فيهما وارتجفت . عاودنى هذيانى . كأننى ألفتها وأعرفها منذ عمر طويل يمتد بطول حياتى.. عاودنى هذيانى.

حدقت بعينى قبل أن تهمس لى برقة شديدة.. اتبعنى . وسرت خلفها مخدرا، وانتشيت؛ إذ تهيأ لى أننى نجحت فى اختراق المتاهة. وها هى رؤياى قد تحققت أخيرا. نفس الجسد ونفس رنين الخلال وأحسست بروحى تصفو وتتخفف مما أنقلها طويلا.

قبل أن ينتهى الدرب بمرر بدا أنه ينحرف إلى اليسار خففت من سرعة خطواتها قليلا قبل أن تتوقف وتشير إلى بإحدى يديها أن اقترب وتعاود الهمس بذات الرقة.. اتبعنى.

على الجدار المجاور لمدخل الممر لمحت نقشا دقت فيه النظر، بسبب خفوت الإضاءة، حتى استطعت أن أتبين ما كان مكتوبا: "سيدة الجبل". وعندما دلفت إلى الداخل انسابت ترنيمات خافتة تصاعدت تدريجيا، ولكنها كانت مختلفة قليلا عما سمعته من قبل إذ اختلطت بها أصوات نسائية رقيقة أقرب ما تكون إلى تنهدات مشبوبة بالشبق أثارتنى قليلا.

كان المدخل يؤدي إلى ممر ضيق كأنه مضاء بإضاءة طبيعية تأتيه من نافذة علوية لم أستطع تحديد مكانها ، وينتهي بمدخل آخر شبه دائري يتسع ليفضي إلى قاعة كبيرة ما إن دخلتها حتى لفحتني نسيمات هواء باردة مسّت وجهي مساً لطيفاً. كانت القاعة مقسمة إلى أربع غرف ضيقة بلا أبواب وإنما مغطاة بستائر بيضاء شفافة. اثنتان على كل جانب. وفي المواجهة كانت هناك غرفة أكثر اتساعاً من الأخرى وتعلوها قليلاً ببضع درجات. وتتسدل على واجهتها ستائر فخرلية شفافة، تشع من خلفها إضاءة متوسطة القوة، كشفت عن أريكة تمددت فوقها سيدة اتكأت على إحدى ذراعيها لترتفع بجذعها قليلاً، وكانت وضعياً رأسها تشير إلى أنها تنتظر باتجاهي.

بعد لحظات أتاني صوتها بذات الرقة وإن كان مشوباً بغنج واضح: تعال الآن .. هيت لك يا حبيبي.

اقتربت منها حتى وصلت إلى الستارة وما إن نحيتها قليلاً حتى هتفت يا ربي!

كانت السيدة أمامي جميلة جداً صارخاً فيما انسدت على جسدها غلالة بيضاء شفافة لم تستطع إخفاء شيئاً من تفاصيل الجسد الرشيق الفارع الممد أمامي.

مدت لى يديها بعد أن عدلت من جلستها قليلاً وهي تقول بدلال: تعال يا حبيبي. لاشك أنك متعب تماماً من طول رحلتك. ولكن لا بأس. ستنسى الآن كل آلامك عندما تنام في حضني. وعندما ألقمك ثدياي ستندوق معنى اللذة. وعلى فخذاي ستعرف كيف تكون الراحة. وتحت سرتي ستجدد لذتك إلى الأبد. تعال..

أثارتني كلماتها ونبرات صوتها وأنا أتأمل صورتها مذهولاً: عينيها الواسعتين المدهشتين بلونهما الذى يختلط فيه العسلى بالأخضر الفاتح تحت حاجبيها الغزيرين المشذبين بعناية. وجهها البيضاوى النحيل يحيط بأنف صغير مدبب يرتفع فوق شفيتين دقيقتين تبرز العليا قليلاً ثم تنسحب برقة على الجانبين حتى تكاد تتلاشى. أما شعرها فطويل ناعم له لون كستنائى فاتح ينسدل على ظهرها. وبدا لون بشرتها كأنه خليط من القهوة باللبن ولون النحاس لا تستطيع الغلالة التى ترتديها إخفاء التماعه بطول الجسد الفارع النحيل الذى يمتلئ قليلاً بعد الخصر كاشفاً عن ردفين كبيرين وإن فى تناسق مع الجسد المعجز.

- تعال الآن.. إجلس هنا بجوارى . اخلع ثيابك أولاً. واجعلنى ألتحف بجسدك الذى انتظرته طويلاً. فلأجلك اغتسلت فى بركة القمر ليلاً، ودلكت جسدى بالدهون. زينت بالكحل عينى وبالشراشف الذهبية ردفائى وجملت جدائلى. ودهنت شفتى بالمرهم العبرى . أحرقت البخور المعبق بالعود حتى تشربته مسام جسدى. اترك الحرية ليديك لتكتشف ذلك كله الآن. دعهما تعرفان كم هو منتفخ صدرى من فرط ولعى بمجيتك. كنت أعرف أنك ستأتى وأنت ستضع يدك اليمنى على فرجى، وباليسرى تداعب شعرى وأنت تضغط شفتى بشفتيك . خذنى الآن يا حبيبى. عانقنى وشدنى إلى صدرك. تلمس فخذى وربت عليهما. قبلهما واضغط عليهما بجسدك.

كان صوتها يتسلل إلى أعصابى ويدغدغ حواسى .
ويتسلل العبق الذى يفوح به جسدها فيختلط بالمشهد السحرى
أمامى ويوقئنى أسيرا لرغبتى فيها .

عندما اقتربت منها تأوهت وهى تتأود بينما يخرج
صوتها شبقا وناعما ومغلفا بشهوة عارمة اشعلت رغبتى
للدرجة التى جعلتتى أشعر بأننى غير قادر على السيطرة على
نفسى .

- أنفاسك تلهبنى . هيا.. انزع هذه الغلالة عنى .

ثم إنها وقفت أمامى فجأة. لم تكن ترتدى سوى مازرا
طويلا أسدلته على جسدها، فلما نضوته عنها تفجر مشهد
جسدها كله أمام عيني مبهرا. الكتفان المرمريتان . والثديان
الكاعبان فى غير ترهل بحلمتيهما الصغيرتين الداكنتين قليلا،
والبطن الهضيم المتماسك والذى التفت حوله سلسلة ذهبية رقيقة
تتدلى منها قلادة ذهبية تغطى ملتقى الفخذين. عندما وضعت
يذى حول خصرها شعرت بأننى أوشك على الاحتراق من شدة
حرارة جسدها المتوهج بالشهوة وبتأجج رغبتى . ضممتها إلى
صدرى فاكتشفت أن جسدى مسربلا بالعرق وتشممت عبقها
وأنا أضع رأسى فى المنطقة بين العنق والكتف وشعرت بما
يشبه الدوار . عندما لمست شفثاى رقبتهما تبللتا بما انساب عليها
من قطرات العرق فيما فاجأتنى هى بصراخها: خذنى بين
ذراعيك.. أنفاسك تقتلنى. ضمنى إليك بقوة. إطرحنى أرضا
وادفق على ماء قلبك.

من خلف الستار سمعت أصوات أنثوية أقرب ما تكون إلى أنات شبقة صعّدت من طقوس اللذة التي فوجئت بنفسى غارقاً فيها بما يزيد من قدرتى على الاحتمال. سمعت أيضاً صوتاً ذكرتى نبراته بالرجل الفراشة ولكنى لم أتبين منه شيئاً. ألقت بنفسها فوق الأريكة ثم جذبتنى إليها وفاجأنى ملمس جسدها تحت جسدى فرحت أضمرها بقوة. غير أن صوت الرجل الفراشة ارتفع للدرجة التي جعلتنى اتليقظ قليلاً من نشوتى رغم فرط بهجتى بعزى هذه المرأة الساحرة تحتى. أضحت السمع. لاحظت أنها بدأت ترفع صوت صراخها الشبق فأطبقت بشفتى على شفثيها بقوة كأننى أحاول تقبيلها.. وجاءنى الصوت شديد الوضوح هذه المرة.

"إصغ إلى فبانى محادثك فى مجاهدة النفس. واعلم أنه على الإنسان أن ينهض بعمله خالصاً من الإثرة بريئاً من الأمل بجزاء أو خوف من عقاب فينال عندئذ السعادة الأبدية. اعلم أن الملذات وما يعرضه الهوى منبع للآلام، وأن اللذة والشهوة هما من العوارض التي ما إن تحل حتى تتبدد. وإنك لن تجد فيها الفرح الأبدى. إن الشهوات والملذات ظواهر عارضة لأنها تخضع لنفس القانون: البداية والنهاية.. الولادة والموت..".

انتفضت من فوقها وأنا ألهث. وجاءنى صوتها رقيقاً ومبحوحاً ومحملاً بالشبق:

- أرجوك.. لا تتركنى.. فقد أشعلت جسدى بالرغبة فلا تتركنى حتى تطفئ ما أشعلته.. أرجوك..

ابتلعت ريقى عدة مرات حتى استطعت أن أخرج صوتي متحسرا:

- أرجوك أنت.. أنا استجبت لك لأنني ظننت أنك فتاة عمرى التى كنت أبحث عنها.

- وما الذى حدث؟ ألم ترى بعينيك ما رأيته فى رؤياك قبل الدخول إلى هنا؟ أرجوك دعك من هذا اللعب.. وتعال.

نظرت إليها. ولعنت الرجل الفراشة . لماذا لم ينتظر قليلا قبل أن يعطينى إشارته اللعينة؟ حدقت بعينيها للحظات وعندما لمحت الشبق الذى اختلط فيهما بالرجاء قررت أن أضرب عرض الحائط بالرجل الفراشة وبكل شيء لألقى بنفسى عليها وليكن ما يكون.

غير أنه أدرك ما يجول بخاطرى فيما يبدو فبدأ يرفع صوته مرة أخرى:

"إن الشهوات والملذات ظواهر عارضة لأنها تخضع لنفس القانون: البداية والنهاية . الولادة والموت.."

وأدركت أنها إشارة وتغلب على خوفى. فالمتاهة لا قرار لها. وبرغم اليقين الذى لازمنى عند دخولى الكهف بأننى أدخل بمنطق المغامر والمقامر. لكنى كنت على قناعة تامة بوجود من أبحث عنها. التقطت ثيابى من أرض الغرفة وأسرعت خارجا. أسرعت خلفى وتابعت توسلها ورجاءها ببقائى. لكنى تسلحت ببقينى مرة أخرى فقاومت كل ما حاولته معى من اغراءات. ولما لمست إصرارى على رفضى انخرطت فى البكاء وانسالت كلماتها من خلال بكائها تؤكد على

محبته لى وتحرقها لمضاجعتى. تقنعت بقناع من الحزم وحافظت جاهدا على ملامح وجهى لإخفاء أى شبهة تأثر رغم تحرقى لملاطفتها ومداعبتها وضمها إلى صدرى. فى اللحظة التالية بدأت تختفى اختفاءات لحظية لتتخذ بعد ظهورها أشكالا أخرى.. هى أشكال النساء اللواتى عشقتهن وتركت كل منهن على روحى بصمتها الخالدة. "هند" بنظرات عينيه المفجعة تشكونى للسماء و"تورا" بجنونها وجمالها الخالد وبكائها الأبدى الصامت. و"هدى" التى ارتبطت عندى بالخطيئة والعجز الجنسى، ثم "بتول" التى كنت أشعر بمرور الأيام أن روحها تحلق حولى دائما رغم سفرها البعيد.

أدركت أن كل هذا لا يتجاوز حد التحايل. وأن ما تفعله هذه السيدة الفاتنة لا يمكنه أن يخرج عن حدود طقوس اللذة التى تخضع لقانون الشهوة.. تبدأ وتنتهى ولكنها لا تمتلك عناصر الاستمرارية والخلود التى تبقى سرا من أسرار الحب الحقيقى الذى أبحث عنه بكل ما تمتلكه روحى من قوة فى دهاليز هذا الكهف ومناهاته. ويبدو أنها أدركت ذلك إذ أنها تنهدت بياس ثم ابتسمت وهى تقول:

هل تعرف أنك أحد القلائل الذين مروا بغرفتى دون أن يقعوا أسرى عشقى متوهمين أننى التى جاءوا للبحث عنها. هل شاهدت هؤلاء الرجال الذين يمتلئ بهم الممر خارج غرفتى؟ كلهم عشاقى؛ أقبلوا على ممثلين بحيويتهم وطاقاتهم وشبابهم، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام جسدى الذى كان يجدد لذتهم. ولم أكن أترك أيا منهم إلا خائر القوى.. خاوية روحه من أى

قدرة على عشق أحد بعدى. لكن أحدا لن ينالنى مرة أخرى، وسيظل يحلم بى طيلة حياته. أما أنت وأمثالك فسوف تفوتكم معرفة لذة وصالى إلى الأبد. ولكن من يدرى فلعلك تدرك من تقامر على وجوده يوما فتعوضك عن ذلك. ولكن ما يدهشنى أن هؤلاء الذين يقوون على الصمود أمام سحرى وأنت منهم هم بالتحديد من يستهوننى.. ربما.. لا أعرف. وعلى كل حال فإننى سأخبرك عن قصتى.. ولكنها قصة طويلة.. فهل ترغب فى سماعها؟

هفتت لها برقة: أرجوك.

أخذت تحديق بالسقف لوهلة وكأنها تستجمع أفكارها. وتأملتها للحظات لكنى حولت بصرى بعيدا خوفاً من وقوعى تحت تأثير جمالها.

"كنت وأنا بعد فتاة صغيرة أسكن فى مدينة غير بعيدة عن هنا. "مدينة النخيل". ولعل اسمها يوضح أنها كانت ممثلة بأشجار النخيل وتجرى خلالها قنوات المياه طولا وعرضا. ولكنها أيضا مدينة ساحلية. وهناك فى أقصى أطرافها المواجه لمياه البحر! استقرت ميناء البواخر الكبيرة والتي كان يعج رصيفها بالحركة والحياة، وبالبيضائع من كل صنف ولون؛ التوابل والعطور والأقمشة والخمور التي كنت أحب رائحتها وهى تعبق فى المكان مختلطة بالتوابل والعطور؛ حيث يتم إنزالها إلى الميناء تمهيدا لنقلها إلى قصر الأمير، والذي أطلق عليه البعض اسم السيد ذى النظر البراق أو الرجل الجبل، عبر القناة الأميرية التي تمتد بطول الميناء وتخرق الجبل حتى

تنحرف أخيرا عبر الشلالات باتجاه القصر . كنت أحب هذه القناة أكثر من باقى الينابيع المنتشرة فى المدينة؛ لقربها من القصر والبحر، ولأنها تمتلئ وتجرى من الشلالات القريبة التى تسوقها السيول المنجرفة من فوق الجبال.

كانت متعتى الكبرى فى التنزه على امتداد القناة الأميرية حتى يحين الغروب فأسرع إلى أوسع نقاطها التى تقع تحت الشلالات مكونة بحيرة كبيرة، وهناك أخلع ثيابى وألقى بنفسى فيها للاستحمام والسباحة.

عندما كبرت قليلا وبرز نهديى قالت لى أمى أنت ودعت طفولتك .. وقد نضجت الفاكهة. إياك والبحيرة الأميرية. ولكنى لم ألق بالآلى ما قالته أمى.. إلا أنها اكتشفت عودتى ذات مساء وشعرى ما زال مبللا بماء البحيرة فثارت وصاحت باكية: ألم أحذرك من الذهاب إلى هناك؟ أنت لست صغيرة الآن. إذا وقعت عليك عينا السيد ذى النظر البراق ماذا ستفعلين؟ سوف يسلط نظره عليك.. سوف يلجك ويجامعك. فاحذرى.

فكرت فيما قالته أمى وأنا أتخيل السيد ذا النظر البراق، وكنت قد رأيته من قبل وبدا لى لطيفا، وقلت لنفسى إنه لطيف وأنا لا أخشاه. فضربت عرض الحائط بما قالته أمى. عند القناة الأميرية كنت أتنزّه كل يوم، وفى البحيرة الأميرية تحت الشلالات أسبح بلا ملل. وذات يوم وبينما كنت أسبح تحت الشلالات أحسست بأننى مراقبة، ولكنى تجاهلت إحساسى دون شعور بالوجل. عندما خرجت من البحيرة عارية، وقبل أن

أجفف جسدى، فوجئت به نفسه.. السيد ذى النظر البراق يقف أمامى ويسدد نظره إلى مبتسما. أخفيت نهدي بيدي. وظل يتأملنى قليلا ثم قال:

- أريد أن أضاجعك.

بهتنتى المفاجأة. ولم أعرف بم أجيبه . لكننى استجمعت قواى وقلت له:

- لا يزال مهلبى ضيقا ولا أستطيع توسيعه.

واستمر هو فى تسديد نظره إلى حازما وإن ظل محافظا على ابتسامته. فزاد ارتباكى وقلت له:

- شفرأى صغيران جدا. لن أستطيع المجامعة. إن عرفت ذلك أمى تعاقبنى. إن عرف ذلك أبى يقتلنى. ورفيقاتى سيسخرن منى.

لم يقل الرجل شيئا غير أنه انصرف فجأة. وذات يوم وكنت أنتزه بمحاذاة القناة الأميرية فوجئت بخادم الأمير يطلب منى الانتقال إلى القارب لأن السيد يرغب فى رؤيتى . رفضت وبدأت أركض هاربة فقفز من القارب حتى لحق بى ، ثم حملنى عائدا غير أبه بصراخى. وضعنى بالقارب . ألقانى على بطنى ثم قيد ذراعى وساقى ، وحاولت التخلص من هذه القيود بكل قوتى ولكن دون جدوى حتى وقعت مغشيا على.

عندما أفقت وجدت نفسى راقدة فى إحدى مزارع القصب؛ عارية تماما. تفحصت جسدى . كان هو نفس الجسد غير أننى شعرت بأنه غريب عنى. يختلط بروائح غريبة، وعند فخذى وجدت أثارا أدركت منها ما حدث. قاومت هلعى وفكرت

بسرعة، ولم يكن أمامي إلا قراراً واحداً اتخذته بسرعة.. أن انتقم لفرجى المهان. قلت لقد نال مني ما أراد. لا بأس . ولكنى سأخذ روحه فى المقابل. من سفينة الشامخة التى أهانت فرجى ستخرج روحه.

ذهبت إلى غانية المدينة وطلبت منها أن تستخدم كل ما تعرفه من فنون الزينة لتبرز جمالى بالشكل الذى لا يستطيع معه أعتى الرجال وأقواهم الإفلات من أسر غوايتى. وانطلقت إلى القصر. كنت أخشى أن يتجاهلنى أو يرفض لقائى لكن عيناه عندما وقعتا على فاضتا بما جعلنى أقول له إننى عرفت ما فعله بى وإننى وقعت أسيرة لعشقه وهواه. وبدأت فى إغوائه. ولكنه لم يكن فى حاجة إلى غواية . انقض على شهوته الوحشية. لعبت معه لعبة الإناث المعروفة بالتدلل والتمنع، ومع تزايد رغبته تركت له جسدى يعبت به كيف يشاء. وجعلته يقضى منى وطره مرة ومرات. وكلما أحسست باكتفائه كلما اشتدت رغبتى فى الثأر لفرجى المهان، أشعلت رغبته بكل الطرق حتى خارت قواه. واستمر الأمر على نفس الحال لعدة أيام للدرجة التى لم تعد للأعشاب والمقويات والوصفات الخاصة القدرة على أن تعيد له حيويته. كنت أعرف أننى أقترب كل يوم من تحقيق هدفى. وبعدها كانت الفترات التى يحتاجها للراحة بعد انقضاء لذته قصيرة ، بدأت تطول تدريجياً حتى وصلت إلى حد عدم قدرته النهوض من فوقى. وعندها أبدأ لعبتى فى إثارة كبريائه وأنا أهمس إليه متسائلة فى خبث. كيف ينهار السيد ذو النظر البراق بين فخذى امرأة؟

كانت كلماتي توجج إحساسه برجولته، غير أن حقويه لم يعد بإمكانهما أن يساعداه بشيء، وانتهى الأمر بأن سفينته الشامخة التي أهان بها فرجى لم تعد تملك شيئا من ماء الحياة.. ولم يكن هناك إلا الدم.

وفى اليوم الذى مات فيه أطلق على أهل المدينة اسم "سيدة الجبل". ومع ذلك استمر إحساسى بالمهانة ولم يشف هذا غلى، قلت إن موت هؤلاء الذين يقتحمون أجساد النساء والفتيات كل يوم دون أدنى رغبة منهن أو إرادة، وقررت أن انتقم لكل الفتيات اللاتي تعرضن لإهانة فروجهن. تعرفت إلى ساحرات المدينة ليخبرتنى عن أسماء الرجال. وانتقلت للفتيات جميعا خاصة أنهن كن يحضرن إلى لإخبارى بالوقائع التي يتعرضن لها فيما ينظرن إلى بإجلال وانبهار، فلم يكن على علم بتفاصيل ما أفعله، ومع ذلك روادنى الشعور بأن فرجى أصبح مقدسا رغم أنني لم أستعمله إلا فى ممارسة الانتقام. أما هنا فأنا أقوم بدورى لإيمانى بهذا الكهف .. كهف العشاق.. حيث أقوم باصطياد من يقع أسيرا للذة الجسد دون الروح لإدراكى أنه لا يستحق المعرفة. فإذهب إلى طريقك.

حدقت بعينيها مبهورا، وأسيرها لجمالهما العميق . اقتربت منها .. أمسكت بيديها وجذبتها قليلا قبل أن أضع شفتى عليها شعرت بملسها شديد النعومة تحت شفتى فقبلتها بتبتل. وتسلسل عقبها إلى أنفى فشعرت بالدوار. كان صوتها يتردد فى أعماقى، وتمتزج مشاهد قصتها فى خيالى بصوت الرجل الفراشة. تمنيت أن ينتهى مطافى فى الكهف بين ذراعى سيدة

الجبل الفاتنة . وأن أضع رأسي بين نهديهما وأطلق كل ما
احتبسته في صدري من أنين طوال سنين عمرى. شعرت بيدها
الأخرى تمسد شعر رأسي برقة.

حاولت النهوض بينما فاجأني دوار لذيذ خدرني فطافت
روحي في أطياف ظلام حنون. استسلمت لها وأنا أشعر بأنني
خفيف تماما.. وكان كل شيء يتلاشى من أمام عيني فيما ترتفع
موسيقى الكهف مصحوبة بترنيمات "سيدة الجبل" الساحرة.

لوحث لمحمد مودعا وأنا أحمل حقيبتى على كتفى مغادرا بيت الشباب الذى لا يتاح المبيت به أكثر من ثلاث ليال. توجهت إلى خالد فى الفندق. أخبرنى موظف الاستقبال عند وصولى بأنه قد ترك لى رسالة أخبرنى فيها بأنه اضطر للسفر إلى الغردقة لمدة أسبوع، وأنه قد ترك لى مفتاح غرفته للبقاء فيها حتى عودته. أشار موظف الاستقبال إلى أحد العاملين وهو يقول لى إنه سيرافقنى إلى الغرفة.

كانت الغرفة صغيرة بها حمام على اليمين. فى المواجهة أخفت الستائر البيضاء النافذة المؤدية إلى شرفة تطل على البحر، وأمامها سريران يتوسطان الغرفة ويواجهها جهاز تليفزيون صغير. وإلى يسارى كان هناك دولاب ملابس صغير وثلاجة. كان خالد قد ترك جيتاراً إسبانياً خشبياً تقليدياً له لون بنى فاتح على فراشه ، وانتشرت مجموعة من أشرطة الكاسيت حول جهاز كاسيت صغير موضوع على الكوميدينو المجاور للفراش. فتحت الدولاب فوجدته مكدمساً - كعادته قبل الزواج وكما ملأ غرفته أيام الجامعة - بصور مختلفة لنساء عاريات

وصورة كبيرة لرغبة تتوسطهم جميعا علقها على الباب الداخلى للدولاب.

أخرجت ملابسى من الحقيبة ورتبتها بأحد رفوف الدولاب. عندما انتهيت نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى الثانية عشرة. ذهبت إلى الفندق الذى تقيم به بتول فلم أجد أحدا فى غرفتها. خرجت مرة أخرى إلى الشاطئ الذى ضج قليلا بالحركة. مجموعة من الشباب تركض باتجاه البحر وأخرى تلعب الكرة عند الشاطئ، بينما تمددت مجموعة كبيرة من السائحين على امتداد الشاطئ شبه عراة.

اتجهت إلى الكافيتريا التى التقيت فيها بـ "بتول" أمس. عندما اقتربت شاهدت فتاتين ترتدى كل منهما "شورت" و"تى شيرت" تبينت بعد لحظة أنهما بتول وأحلام. لوحت لهما فأشارت بتول باتجاهى وهى تخاطب أحلام. اقتربت منهما وأنا أحييهما:

- صباح الخير.

فردتا على التحية.

قلت لبتول:

- رحى لك الفندق فقالوا لى إنك خرجت.

- أيوه رحنا هنا (أشارت إلى الوحدة الطبية القريبة)

عشان أغير على الجرح.

- وإيه الأخبار؟

- لاتمام - الحمد لله - إمبراح كنت تعبانة شوية ..

بس النهاردة كويس.

- جميل .. ورايحين فين؟
- إحنا كنا راجعين الفندق .. وانت؟
- أنا لسه واصل حالا .. تحبوا تشربوا شاي معايا؟
قالت "أحلام":
- لا.. لا.. أنا ما أقدر .. أنا ما نمت من أمس .. لازم
أروح الفندق.
ثم نظرت إلى بتول قائلة: جلسي إنت إذا تريدي .. هو
يوصلك؟

نقلت "بتول" نظرها بيننا فقلت:
- طبعاً .. طبعاً أوصولك مافيش مشكلة .. إذا حبيتي.
قالت "بتول":
- أنا عاوزه أقعد معاك. لكن يعنى ما أحب أتعبك.
- لا.. لا مافيش تعب ولا حاجة.
- خلاص .. Ok. انزين أحلام باجلس أنا شوية.
فلوحت لنا أحلام مودعة :
- انزين .. ياللا.. مع السلامة.
أمسكت بإحدى ذراعى وهى تتكى بخفة على ساقها
المجروحة باتجاه الطاولة التى جلسنا إليها بالأمس. عندما
شاهدنا سعيد لوح إلينا من بعيد. سألت بتول إذا ما أرادت أن
تشرب قهوة فأومأت بالإيجاب، فأشرت له بكفى موسعا بين
الإبهام والسبابة. سألتنى وهو يحرك شفثيه دون أن يصدر
صوتا:
شاي؟ فأشرت بيدي نافيا فأعاد حركة شفثيه .. قهوة!؟

فهرزت رأسى مؤيدا.

عندما جلسنا سألتها:

- هى صاحبك ما بتحبش المصريين؟

- أحلام؟ لا.. أبدا. بالعكس .. دى حتى اجتماعية جدا.

بس هى فعلا تعبانة . وما نامت من أمس.

- وانت؟

- أنا كنت تعبانة جدا ونمت بدرى.

- انتولوحدكو هنا؟

- أيوه.. إحنا هانطلع من هنا على إيطاليا وحنقابل

هناك ناس أصحابنا ونروح معاهم أسبانيا بالسيارة.

- أه.. هایل.

صممتا للحظات عندما ارتفع صوت الكاسيت بأغنية

"البيتلز" AND I LOVE HER فهتفت:

- يا سلام!

- بتحبها؟

- جدا

- أنا كمان.

- بس اشمعنى أسبانيا؟

- يعنى بلد حلوه .. وما رحناها من قبل.

- ورحت فين طيب؟

- .. أنا رحت سويسرا وإيطاليا.. والمجر.

- هایل

- أصل السفر فى أوروبا سهل.. كله بالقطار.. بس
 أحيانا لما نكون مجموعة كبيرة بنسافر بسيارة.
 - طيب، وهنا فى مصر.. رحى فىن؟
 - زى ما قلت لك أنا جلىست فى القاهرة يومين .
 عاوزة أروح "دهب" و"سانت كاترين" ونفسى أروح "إسكندرية"
 ضرورى وكمان "الأقصر" و"أسوان". مش عارفه هالحق ولا
 لا؟
 - طيب إيه رأيك نروح "دهب" سوا.. أنا كما نفسى
 أشوفها.
 - والله؟ يا ريت. أنا كنت باقول لأحلام. بش مش
 عارفه مالها.. قالت لى إنها مالهاش مزاج تتحرك من هنا.
 فممكن يعنى نروح سوا؟
 - طبعا..
 - خلاص اتفقنا.
 احضر سعيد القهوة مرحبا بنا فشكرناه. وقعت عيناها
 على الكتاب ودفتر المذكرات. سألتنى:
 - إيه ده؟
 - ده كتاب المهابهاراتا.
 - ده الكتاب المقدس بتاع الهندوس مش كده؟
 - أيوه..
 - أصل أنا باحب أقرأ فى الديانات.
 - والله؟ بالمناسبة إنت.. يعنى .. ديانتك؟
 ضحكت وهى تتساءل مستكرة:

- ايه ده؟! طبعا مسلمة.
- يعنى أنا فكرت.. عشان مامتك فرنساوية.
- أيوه ماما فعلا مسيحية لغاية دلوقت. بس أنا مسلمة.
- أنت اتولدت فى عمان؟
- لا.. فى فرنسا.. واتعمدت التعميد الأول بس ما اتعمدتش الثانى.
- وليكى اسم مسيحي على كده!!
- أيوه.. "أنيت"
- اسم جميل. ده اسم فرنساوى.. مش كده؟
- طبعا لأن ماما هى اللى اختارته. بس ما حدش بيندهلى بيه أبدا.
- ولا حتى ماما؟
- ولا ماما.
- بس إنت اسمك العربى جميل جدا..
- "ميرسى".
- وكانت دراستك ايه بقى؟
- أنا درست أدب. بابا كان عاوزنى أدرس فى مسقط بس ماما أصرت إنى أروح فرنسا بعد الثانوية العامة. ولما رحلت كنت محتارة أدرس أدب ولا سينما لأنى باحب التمثيل.
- بس قلت إن دراسة السينما هتكون دراسة تقنية أكثر منها دراسة لتاريخ الفن. ففضلت الأدب لأنى باحب قراءة الأدب والمسرح.
- ومتللت فى الجامعة أدوار صغيرة.
- متلتي؟

- أيوه.. أنا باحب التمثيل جدا. على فكرة مش عارفة أقولك إزاي (صممت قليلاً كأنها تستجمع أفكارها) .. شوف أنا بأقول لك.. رغم كل اللي يقولوه عن التمثيل ، ورغم إنه مجال سيئ السمعة نسبياً في العالم العربي.. بس ممتع بشكل غريب.. حاجة كده زى حقنة البنج.

- حقنة بنج؟ هو انت عملت عمليات قبل كده؟

- أيوه .. عملية صغيرة في عيني.

تذكرت العملية الجراحية التي أجريتها والنشوة التي أصابتنى بعد خروجي من غرفة العمليات.

قلت لها:

- تخيلي إن أنا برضه اكتشفت أهمية التمثيل .

- بتحب تمثّل؟

- لا.. يعنى فكرت .. لأنى كنت قريرت إن التمثيل مهم لأنه بيخلي الواحد يقدر يعبر عن نفسه.. أصلى أنا خجول جدا وما باعرفش أعبر عن نفسى.. ويمكن عشان كده اتجهت للرسم وحييته.

مرت أمامنا فتاة نحيلة شقراء ترتدى مايوه بيكىنى ساخن لونه أحمر يتأبطها فتى ممشوق القوام له شعر أسود فاحم. تأملت بطن ركبتها وساقها الجميلتين وهما تلمعان بفعل تناثر قطرات المياه عليهما.

- أنا كمان كنت خجولة ومنطوية وأنا صغيرة. وكان عندى إحساس إنى مختلفة عن البنات التانيين. يعنى شكلى وملامحى. بس لما رحى أوروبا اتعلمت حاجات كتير.. الناس

هناك مش محتاجة تكذب على بعض. بيعملوا اللي هما عاوزينه وبدون افتعال وماحدش له دعوه بالتانى والتمثيل كمان فادنى كتير.

- أنا خجول من صغرى بس كنت طول الوقت باحاول أتمرد عليه . ماكنتش منطوى أبدا. فكرت فترة إني أروح لدكتور نفسى بس اكتشفت إني باتغلب عليه بالشغل والحب.
- إزاي يعنى؟

- يعنى لما باعيش حالة حب بابقى مستقر نفسيا . وده بيخلينى أشتغل كويس وباكون واثق فى نفسى .. لكن فى حالات عدم الاستقرار العاطفى بيحصل لى إنهيار نفسى مرعب.

التقطت سيجارة من علبة السجائر ثم قدمت إليها العلبة.
نظرت إلى بتردد. ثم قالت:
- ممكن أخذ واحدة؟
- طبعا.. أرجوك.

- أصل فيه ناس مش بيحبوا البنات يشربوا سجائر.
انت رأيك إيه.. يعنى ماتستغربش لما تشوف بنت تدخن؟
- أنا؟ لا.. طبعا.. أنا أولا مايفيش أى حاجة بتدهشنى.
وبعدين أنا شخصيا باحب البنات الللى بتدخن، وبعدين هنا فى مصر تدخين البنات بقى عادى.

- أنا أصلا بادخن لما أكون عصبية . بس عندى فكرة إن الرجل الشرقى سواء فى عمان أو غيرها عنده أفكار ثابتة. والتدخين فى بلد زى عمان يخللى البنات كأنها prostitute.

أشعلت لها السيجارة أنا أراقبها فنحت وجهها جانبا
ونفخت الدخان بشكل أوحى لى أنها تضايقت من مراقبتى لها.
.. هل ممكن أن يكون حضورى إلى هذا المكان
الساحر للقاء هذه الفاتنة مجرد مصادفة؟

كنت فى أثناء شرودى أحقق على غير قصد منى فى
قدميها وقد خلعت "شبهبها" فباننا أنيقتين ، وبضنتين وقد طليت
أناملها بعناية بلون أحمر فاتح. عندما رفعت رأسى رأيتها تحدد
بعينى مندهشة. ولكنى بادلتها التحديق كأنما أؤكد لها أنهما
جميلتان وأننى كنت شاردا فنفتت الدخان فى وجهى وهى ترسم
ابتسامة بها شبهة خبت.

افترش الفتى وفتاته منشفة كبيرة بجوار الشاطئ.
استلقت الفتاة على بطنها وقد خلعت القطعة العلوية من المايوه
بينما راح الفتى يضع كريما سائلا على ظهرها قبل أن يتحسسه
برفق موزعا الكريم على امتداده.

سألتنى:

- مافيش حاجة من الرسم بتاعك معاك؟

- لا..

- طيب.. مش بترسم هنا؟

- والله لسه مارسمتش. أول حاجة فكرت أرسمها لغاية
دلوقت هو أنت.

- أنا؟!!

- أيوه.

- وتفنكر إنى أستاهل الرسم؟

- بيتهألى إنى طول عمرى باحلم أرسم واحدة شبهك
بالضبط.

- يا سلام؟

- والله باتكلم بجد. أنا كنت باحلم بواحده شبهك.

- خلى بالك .. الكلام ده خطير.

- خطير إزاي يعنى؟

- يعنى!

- لا.. لا.. بلاش دماغك تروح لبعيد.. عموما أنا
هارسمك أكيد.. بس مش دلوقت.

ضحكت الفتاة وهى تدير رأسها باتجاه الفتى عندما
وضع يديه على إبتيتها. وسرعان ما عاودت الاسترخاء بينما
تابع الفتى تحسس فخذيهما وساقيهما.

أقلت بتول السيجارة بعد أن جذبت منها نفسا أخيرا
وسألتنى فيما يختلط صوتها بالدخان الخارج من فمها عن
الساعة التى أشارت إلى الواحدة والنصف. فقالت:

- طيب.. أنا لازم أروح دلوقت.. إنت هاتعمل إيه؟

- لازم تروحي دلوقت؟

- أيوه.. تعبانة شوية..

- أنا هاجى معاك أوصلك وبعدين أرجع هنا تانى..
لسه اليوم طويل.

- طيب بس ما فيش داعى تتعب نفسك.. يعنى تروح
كل ده وترجع تانى.

- لا يا ستي.. تعبك راحه وبعدين "أحلام" مسلماتك لى
أمانة.

ابتسمت وهى تنهض بتناقل. وأشرت إلى سعيد بأننى
سأعود بعد قليل فأوماً برأسه ولوح لى.
وكان الفتى قد استرخى بجوار فتاته وقد عرضا
ظهريهما لأشعة الشمس التى اشتدت قليلا.

عدت إلى الكافيتريا. استلقيت مسترخيا وأمسكت الكتاب
معاودا القراءة .. وصادف أن كان باند يتجول فى الغابات عند
سفوح الهيمالايا ووقع يومئذ على ظبيين يتزاجان فى خلوة ،
وتهيا له أنه وقع فريسة سهلة فباغت الظبي بخمس سهام
ماضيات، فخر المسكين سريعا وهو يرسل صرخات ألم قوية
اهتزت لها الغابة. التفت الظبي الصريع إلى قاتله وحده
بنظرة طويلة وشرع ينطق بلسان البشر:

أى ذنب جنيت لتقتلنى؟ أى قسوة وأى طبع جلف
حملاك على قتلى وأنا لم آت ذنبا ثم ها أنت تأتى فى لحظة
المتعة فتمنعنى عنها.. إيه .. إن القساة الأجلاف يغضون
الطرف حين يرون الوحوش والبهائم وهى تتزاج بل إن الأمم
المتعادية لا تبادر إلى الحرب قبل أن ترسل إنذارا. ولكنك
تجاهلت كل الأعراف حين داهمتنى على حين غرة..".

* * *

احتلت خيالى كتلة الجسد المتماسك ناصع البياض
دونما ترهل. كان وجودها معى فى الشقة فى أول لقاء لنا بعد
علاقة تليفونية طويلة لا يحمل أى معنى آخر. وكنت أفكر عن

مفتاح الكلمات الذى سيتيح للجسدين عناقا عاريا يترقبه كل منهما دون إفصاح. ورغم أن كلا منا يعرف كل شىء عن الآخر تقريبا، إلا أنها المرة الأولى التى يقع فيها كلانا تحت وطأة تأثير روح الآخر فى المجال المحيط بجسدينا . حاولنا تجاوز الصورة التى كونها من نبرات الصوت وطريقة الكلام والهمس المحمل بالشبق والشكوى الأليفة وتمسيد الجسد بكلمات معطرة بالحنان وبنبرات يجتهد كل منا فى أن تصل إلى مسام الجسد عبر أسلاك الهاتف.. كنا نحاول تجاوز هذا كله وتلقى الصورة الجديدة الواقعية بمواصفات لا مجال فيها لأى خيال.

انتهيت من إعداد الشاى.. وضعت الكوبين على الطاولة القريبة ثم خلعت قميصى فجأة، وأنا أقول بجديّة إن الجو شديد الحرارة . ابتسمت وهى تتأمل صدرى العارى قبل أن تتفخ فى كفيها بعد أن ضمتهما دلالة على إحساسها بالبرودة. قالت: تبدو نحيفا، جلست بجوارها على الكنبة وقلت لها إنها جميلة كما تخيلتها، وقالت إننى أكثر وسامة مما وصفته لها. التقت العيون لوهلة كأنما نعطى فرصة لمراكز التصوير بالمخ لتعديل الصورة بما يتلاءم والشكل الجديد.

فاجأتى عندما بدأت فى تقبيلها بإغلاق فمها تماما، ولم يكن لسانى قادرا على اجتياز أسنانها حتى اضطررت أن أنبهاها إلى ذلك. كانت تطلق تأوهات مشبوبة بالشبق، وتفتح عينيها كأنها تعيش فى عالم سحرى تلجه للمرة الأولى. اكتشفت أنها ليست معتادة على التقبيل رغم زواجها الطويل. وفهمت أن زوجها يدخل إلى مهمته بسرعة ودون مقدمات. وعندما ذهبنا

إلى الفراش أكدت لى مرة أخرى أن خبرتها تقتضى الدخول فى المهم. وهو ما لم يكن يعينى كثيرا. كنت أحتاج إلى المداعبات. أن تضمنى إلى صدرها بحنان. حاولت جاهدا إخفاء الألم النفسية التى تعترضنى..

لماذا أنام مع امرأة فى أول لقاء لنا؟ أعرف أن تراكم الألم بسبب فقد "تورا" وخيانتها غير المبررة ينقلنى يوما بعد يوم إلى حافة الجنون. واكتشفت أن ما أفعله مع هذه السيدة المتزوجة لا يؤدي إلا إلى تفاقم الألم.

وهكذا أوليتها ظهري وكورت نفسى عاريا متأهبا للنوم.. يداهمنى إحساس موحش بالوحدة. راحت تتصاعد بعد ذلك حتى أفقدتني أية قدرة للتواصل مع الناس.

تسلل صوت منير بأغنية لا أحب أكثر منها.. "الناس نامت إلاي.. الناس نامت إلاك. واقف لك فى الشباك.. باستتى اليوم الجاي..".

وداهمنى طيف "هند" طافيا على الألحان.. كأن الموسيقى كلها لا تثير إلا الذكريات والحنين لأولئك اللواتى صرن بعيدات بعد أن أخذت كل منهن جزءا من روحى وتركننى خاويا إلا من الألم. هند التى قررت رغم قرار الانفصال أن تقضى معى ليلة.. "ليلتنا الأخيرة" أدرك الآن أنها لم تكن تفعل ذلك لنفسها فقط وإنما، وكما كانت تفعل كل شىء، لأجلى أيضا، وكأنها تعرف أننى سأعانى بعدها وحشة الوحدة الأزلية، التى لم تستطع إزالتها كل اللواتى تذررت بعريهن لاحقا. وهكذا ملأت ليلتنا بالرقص الوديع. بحنانها الدافق

وبدء جسدها الخمرى الأليف...، وبتوسدى وجهها المشمشى
الذى يعبق برائحة حميمة كتلك التى تفرح من الأطفال،
وبالحكايات التى تنسال إلى أعماقى وألقاها بطفولية. كنت أسلم
نفسى إليها.. أثرثر على غير عادتى بكل ما يعن لى. أغضب
كالمجانين وأرق كالملائكة. أضع رأسى أسفل بطنها مستكينا
مستسلما لدغابات أناملها ومنتشيا يعبق جسدها. وعندما
تسترخى هى.. أقبل إبطها امتنانا وأداعب أذنيها بلسانى وأقبل
جسدها كاملا، قبل أن أضع قدميها على صدرى العارى
لأدفعهما. كم كان وجودها عذبا.. وكم افتقد كل ما كان بيننا.
ليتها كانت أعنف قليلا فى تعبيرها عن حبها ورغبات جسدها.
ربما لكان فى إمكانها أن تكبح جماح الطفل العابث فى أعماقى،
هذا الذى كسر بيديه ما لم يعرف قيمته أبدا لأجل أن يلهو
بالعاب صغيرة أراد بها أن يكتشف العالم! دون أن يعى أنه قد
أضاع، وببلاهة شديدة، ما لا يمكن تعويضه.. وأنه فقد إلى
الأبد ما لا يمكن أن يعود.

تجاوزت كل هؤلاء الذين رأيتهم قبل دخولي إلى "سيدة الكهف". جالسين ما زالوا كما تركتهم يتأوهون ويتألمون. سرت في طريق معاكس . أصبح الدرب خاليا بعد لحظات وخفتت الأصوات تدريجيا. سمعت صوت وشيش يأتي من مكان قريب غير أنني لم أستطع تحديده. قلت إنها البحيرة التي أبحث عنها. صرخت فزعا عندما انتشلتني يد من فتحة جانبية في الجدار المجاور لتجذبني بقوة إلى الداخل.

رغم المفاجأة شعرت بخجل شديد من صراخي وفزعي. ساعدني الظلام الدامس على تجاوزه بسرعة . وبالتدريج عاودت عيناى الرؤية بصعوبة بسبب العشى الليلي الذي أعانيه.

يا سالتتر يارب.. إيه ده؟ هكذا هتفت لنفسى عندما استوضحت ملامح السيدة التى اكتشفت أنها أدخلتني إلى هذه الزاوية من فرط دمامتها. انتشرت التجاعيد فى سائر الوجه وبدت عيناها بلا جفون، أما شفتها السفلى فكان لونها شاحبا وأقرب إلى البياض، وكأنها تعرضت للاحتراق، فيما تلون طرفا فمها بلون بنى داكن.

سألتنى : هل تبحث عنى؟

جاءنى صوتها محشرجا ذا نبرة غليظة. أسقط فى يدى
ولم أعرف ما الذى ينبغى أن أقوله لها.

- ولماذا تتصورين أننى أبحث عنك؟

- النجوم..

- النجوم!؟

- نعم.. النجوم وصفت لى رسمك.. وقالت لى إنك
ستأتى.

تحاشيت النظر إليها وأنا أسألها:

- النجوم قالت إننى سأحضر إلى هنا بحثا عنك؟

- نعم .. أنت لا تصدقنى.. ولا تستطيع حتى أن تنظر

إلى.. ولكن احترس فهذا هو الاختبار.. ليست هذه هى صورتي
الحقيقية.. لكننى أخطأت خطأ كبيرا وعوقبت وعندما حلمت
بالنجوم، أخبرونى عن هذا الكهف وقالوا إنه سيكون فرصتى
الأخيرة فى التطهر من إثمى. وعودة وجهى إلى صورته
الأولى.

كنت أتمنى ألا أسمعها تقول شيئا عن ممارسة الحب..

إلا أنها استكملت قائلة:

- وهذا التحول لن يحدث قبل أن نمارس أنا وحبيبى

الحب تحت ضوء القمر.

هتفت لنفسى (يا سلام).

قلت لها مبتسما:

- أنتم فى هذا الكهف تحتاجون لأرنولد شوازنجر أو شمشون!

نظرت إلى ببلاهة.. ثم ركزت نظرها على وهى تقول:
- لا تشوش عقلى بما لا أستطيع فهمه. اسمع قصتى
أولا.. وسأترك الحكم لك فى نهاية الأمر.

تناهى إلى سمعى صوت خرير المياه مرة أخرى..
فشعرت بالتملل رغبة فى التحرك باتجاه البحيرة.. لكنى خشيت
أن تكون هذه المائلة أمامى اختبارا حقيقيا قد يعنى خسارته
فقدان كل شىء .

قلت لها بنفاد صبر: تفضلى..

بدأت حكايتها وهى تصور جمالها القديم الذى كانت
تحسدها عليه كل صاحباتها، وكنت أتخشى النظر إليها وأنا
استدعى سيدة الكهف إلى مخيلتى وأقارن بينهما مندهشا.. كانت
السيدة المدهشة الجمال وهذه السيدة الدميمة كلتاها تعانيان
وتتألمان.. فمن الذى لا يعانى إذن!؟

- .. ولكننى لم أستجب لإغراءات الرجال وغزلهم.
وإنما كان هناك شخص واحد فقط هو الذى استجبت له.. وقد
كان لسوء الحظ من محارمى، ولكنى كنت أحبه . وأستمتع بما
يفعله معى. شاهدونا معا ذات يوم. أوسعونا ضربا. وعلقه أبى
من قدميه ليومين كاملين.. وعندما حلوا وثاقه كان قد فقد عقله
وسار فى الطرقات يهذى كالمجنون. أما أنا فقد وضعونى فى
إحدى غرف الدار كالمسجونات لا أرى النور. فقط تأتى أمى

لتضع الطعام. وتأتى إحدى أخواتى لتذهب بى إلى الخلاء دون أن تتكلم معى كلمة واحدة. ومرت الأيام هكذا مرّة وبائسة. فى النهاية أخرجونى من زنزانتى وقالوا لى إنهم سيزوجونى، ولم أر زوجى هذا إلا فى ليلة الزواج. فوجئت بقزم دمىم أمامى يحدق بى والشهوة تتقاذف من نظرة عينيه الزائغتين قبل أن ينقض على بوحشية. تعاركنا طول الليل. فى النهاية خارت قواى. خلع عنى ثيابى وألقى بنفسه فوقى. لكنه لم يفعل شيئاً فى نهاية الأمر. وهكذا كان الأمر يتكرر كل ليلة، وكنت أصاب بحالة من التشنج بسبب رفضى له جعلته يقضى لذته بعيداً عنى.

اكتشفت بعد ذلك أنه يحب الأولاد وأنه لا يستطيع الممارسة مع الإناث، وفوجئت به يحضر بعض المخنثين إلى بيتى ويمارس كل شىء أمامى وهو يتقاذف بهيئته المنفرة مهتاجاً ومستثاراً.

كنت أعرف أننى أعاقب على جرمى الفادح. لذلك حاولت تقبل الأمر فى البداية.. ولكننى بمرور الوقت وزيادة وحشيته وممارسته الشاذة وكثرة تفكيرى فى ذلك الذى يطوف فى الشوارع والطرقات وهو يهتف باسمى فإبنى بدأت اتعرض لسنوبات اكتئاب وصلت الى ذروتها فى الليلة التى عرفت فيها أنهم قتلوه درءاً للفضيحة. وهكذا أشعلت النار فى نفسى. ولا أعرف كيف أنقذونى أو أين. غير أننى ظللت أهدى طوال أيام حتى استعدت عافيتى بالتدريج ولكن بهذا الوجه الذى تراه. وبعدها تركنى ولم يعد يتعرض لى وأغلق على إحدى حجرات

المنزل واستدعى سيدة كانت تسكن بجوارنا للاعتناء بي ما أمكنها.

وبدأت أهرب بالنوم. وأحلم بشخص له مثل مواصفاتك. بل هو أنت تحديدا. يدعوني للحضور إلى هذا الكهف للتطهر والخلاص. وفشلت عدة محاولات للهرب. لكنني في النهاية نجحت في الخروج في أثناء وجوده مع أحد هؤلاء المخنثين. وسرت طويلا حتى وصلت إلى هنا.

تمنييت أن أستمع إلى أية إشارة من الرجل الفراشة أو "الصلت" أو أى أحد.. ولكن دون جدوى . قلت غير معقول، هل يمكنني ممارسة ما منعه على نفسي مع سيدة الكهف لفعله مع هذه السيدة؟!!

قلت لها: ولكن النجوم أخبرتني بأننى سأجد ما أبحث عنه عند البحيرة الموجودة داخل هذا الكهف.

فهمت: هذا صحيح.. فالبحيرة تقع في عمق الكهف وهناك توجد كوة وحيدة تسمح لأشعة القمر بالنفاذ.. إذن فالنبوءة حقيقية.

أسقط في يدي مرة أخرى ولم اعرف ماذا أقول.. حاولت أن أهدئ نفسي بضمان العثور على البحيرة.

وعادت تقول بابتهاج واضح: أنت محظوظ.. فالطريق إلى البحيرة طويل.. خاصة أنها تقع في أعلى مناطق الكهف وعلينا اجتياز سبعة مستويات. وقليلون جدا هم الذين يعرفون منافذ الصعود.. ولكن اطمأن فانا واحدة منهم.. تعال معي.

اقتربت من محطة الأتوبيسات أسفل النتل الذي يستقر بيت الشباب في أعلاه. أسرعت لأسأل عن الأتوبيس المتوجه إلى "دهب" فأخبرني أحد السائقين بأن مواعده بعد نصف ساعة. قلت له:

- عاوز تذكرتين.

- مافيش حجز للميعاد ده. ممكن تقطع التذاكر في الأتوبيس.

- شكرته . تطلعت حولي حتى لمحتها من بعيد ترتدى قميصا أبيض "وشورت" ضيق بنفس اللون.

وابتسمت لها وأنا أتحرك باتجاهها. عندما اقتربت راحت تحك كفيها ببعضهما دلالة على إحساسها بالبرودة وهي تردد اسمي ثم أردفت:

- صباح الخير .. اتأخرت عليك؟

- صباح الفل .. لا .. أبدا.

تبينت السوتيان الأسود الذي يظهر من خلال قميصها

وأنا أقول:

- قدأنا نصف ساعة.. نعمل إيه؟

- نشرب قهوة؟

- فكرة مش بطالة.

توجهنا صوب المقهى المجاور لنا والذي تتأثر فى انحاءه مجموعة من الأجانب الذين بدوا وسط أكوام حقائبهم أنهم ينتظرون أى حافلة لاستكمال رحلتهم فى سيناء. طلبنا القهوة من الجرسون.

قلت:

- صاحبك أحلام دى غريبه شوية.

- .. فيه ناس كتير بيقولوا كده . بس طيبة جدا والله.

- شربت إمبراح كتير. واضح إنها مش متعودة على الشرب.

صمتت لوهلة وكأنها تفكر فى شىء ما ثم قالت:

- أيوه.. يعنى.. أصل عندها شوية مشاكل.

قالت ذلك وأطرقت وهى تنظر أمامها واجمة بعض الشىء . تسللت إحدى يديها تلتقط سيجارة من علبة سجائرها، أسرعت بإشعالها لها وأنا أتأمل عينيها اللتين راقتا لى تماما؛ ربما لأنهما بدتا شديدتى الألفة بما تعلق بهما من آثار النوم.

اقتربت ثلاث فتيات شقراوات من مدخل المقهى، قامت "بتول" لترحب بهن فى حماس. عرفتنى إليهن قبل أن تتخرط معهن فى حوار ضاحك بالفرنسية. ارتدت إحداهن "ترايننج سوت" أسود رسمت على واجهته تفاحة كبيرة بلون البنفسج. وقصت شعرها الطويل على شكل ذيل حصان، بينما ارتدت الأخرىتان "شورت" و"تى شيرت". وكانت إحداهما لها ملامح

متناسقة جميلة ولعينها لون أزرق رائق بدا مدهشا من خلف النظارة الطبية التى خلعتها للحظات وهى تمسحها بمنديل ورقى أبيض.

أحضر القهوة نادل قصير القامة شديد التجهم. وضع القدحين أمامى. صب القهوة بسرعة واستدار متوجها إلى الداخل بنفس الإيقاع بينما كانت بتول تودع صديقاتها اللواتى ابتسمن لى محبيات قبل أن يتجهن إلى داخل المقهى. سألتها فور جلوسها:

- فرنساويات؟

- أيوه.. اتعرفت عليهن فى القاهرة.. رايعين سانت كاترين.

- هما جايين لوحدهم؟

ابتلعت أول رشفة من القهوة وهى تومئ برأسها قبل أن تزوم بالإيجاب.

شعرت بالطرب واندھشت للنشوة التى ثارت بروحى. مرت على خاطرى مشاهد التجمع أمام الأتوبيس قبل الرحلات أيام الجامعة.

".. الفتى وفتاته فى رحلة العودة الليلية يجلسان متجاورين على عكس رحلة الذهاب التى كانا يتجاهلان بعضهما البعض خلالها عن عمد.. ويتواطأ الجميع معهما دون اتفاق بالانضمام إلى جماعة الغناء والرقص فى الركن الصاخب للأتوبيس، يبدآن حوارا صامتا بالكفين المغطين بجاكيت الفتى. تقوم الأنامل بأدوار تتعاقب بين التدليل والحنان

والتشكى والعتاب قبل أن تتشابك فى تشبث حميم كأنما تعلن
عناقاً بدأ لتوه.. وتحفز الجسدان لعناق مشابه.."

تأملت ما آل إليه حالنا أنا و"هند" .. ابتسمت بسخرية، ثم
إننى رحمت أطرده من مخيلتى مشهد الرجل غريب الأطوار
السمح الذى أثارنى بضحكاته على هذا المقهى؛ والذى أطبقت
صورته على مخيلتى فجأة بدون سبب واضح فقلت لبتول:

- إمبراح كنت مشمشه خالص.

- إيه مشمشه دى.. شتيمه؟

- شتيمه إيه؟ لأ.. مشمشه يعنى.. مشمشه.

- مشمشه.. والله مش بطال.. إنت كمان مشمش
خالص.

ضحكت وأنا أعيد الكلمة التى خرجت مع الضحكة
ممدودة بعض الشيء:

- مشمش؟

- أيوه.. بالذات وإحنا بنرقص.

حدقت بعينيهما وأنا أسأل:

- أسمعنى؟

- يعنى.. كنت.. مش عارفه. أنا كنت مبسوفة وإحنا
بنرقص. بس كنت خايفه إن دمي يكون ثقيل.

- لا.. لا.. بالعكس.. سهرة إمبراح دى بينى وبينك
كانت عامله زى حقنة البنج.

أغرقت فى الضحك ثم قالت وكأنها تذكرت شيئاً فجأة:

- إيه ده.. الساعة معاك كام؟

نظرت إلى الساعة وأنا أقوم قائلاً:

- يااه.. يا دوب نلحق.

عندما وصلنا إلى شاطئ "عسلة" هفتت بتول: مدهش.

إلى اليمين استقر مبنى صغير أبيض اللون يتسع لغرفتين بالكاد علق على واجهته لوحة سوداء كتب عليها بخط أبيض "شرطة عسلة". تمتد من بعده الرمال بامتداد الشاطئ على شكل قوس باتجاه اليمين فيما تناثرت طولياً أشجار النخيل التي أضفت على الشاطئ سحراً خاصاً.

على الجانب الآخر انتشرت مجموعة من المقاهي والكافيتريات والمحلات والبازارات التي تختص ببيع التحف والهدايا للسائحين، الذين انتشروا مستلقين ومعرضين أجسادهم للشمس فوق بعض الحصر التي فرشت في مواجهة المقاهي.

توقفنا امام مقهى خف الزحام عنه قليلاً. بدا شديد الاتساع، وقسمت مساحته الداخلية إلى عدة جلسات مشابهة لمجالس البدو، تتوسط كل منها صينية نحاسية كبيرة، وحولها تتراص بعض المخدات و"الثلث" بألوان زاهية على أرض المقهى المغطاة بالحصير.

اخترنا أحد الأركان البعيدة من المدخل. بجوارنا جلس بعض الشباب يتصايحون في صخب وقد انقسموا إلى مجموعات؛ بعضهم يلعب "الطاولة" بينما راح فريق آخر منهم يتجاذبون الحديث مع مجموعة من الشباب والفتيات الذين بدوا من طريقة نطقهم للإنجليزية وأجسادهم الضخمة ألماناً، أو هكذا تصورت.

لم نستطع المكوث طويلا فى المقهى بسبب الضوضاء. تجرعنا زجاجتى "بيبسى" بسرعة وخرجنا إلى الشاطئ. كانت الشمس قد اشتدت قليلا. اقترحت على بتول أن نسبح قليلا ولم تمنع. خلعت "التي شيرت" الذى كانت ترتديه، واكتشفت أنها ترتدى مايوه بيكىنى أسود وليس "سويتان" كما اعتقدت. تركنا ثيابنا على الحصيرة المفروشة بجوار الشاطئ. وعندما وصلنا إلى المياه وجدناها شديدة البرودة. وكانت الرمال فى أول الشاطئ مغطاة بحصى غليظ وجدنا صعوبة كبيرة فى أن نسير عليه، وبدأت بتول فى التأوه بسبب الجرح فى قدمها. اقترحت عليها أن نخرج.. قالت إن مياه البحر ستكون مفيدة للجرح. سبحت بعيدا عنها، وعندما عدت وجدتها مستلقية على ظهرها وكان جسدها يلتمع بفعل انعكاس الشمس عليه. وفور اقترابى منها قالت إنها لم تعد تحتمل أكثر من ذلك فخرجنا وتوجهنا إلى المقهى للاغتسال. عندما انتهينا قررنا أن نتمشى قليلا. فى الثلث الأخير من الشاطئ تقريبا وجدنا مجموعة من المقاعد والطاولات البلاستيكية موضوعة بغير نظام أسفل مجموعة متلاصقة من أشجار النخيل.

جلسنا إلى إحدى الطاولات . حضر أحد الجرسونات إلينا. طلبنا بيرة. مسحت بتول على شعرها المبتل قبل أن تطلب منى سيجارة. أشعلتها وقدمتها لها. على رمال الشاطئ بجوارنا تمددت فتاة ترتدى مايوه "بيكىنى" له ألوان تراوحت بين الروز والأرجوان والأخضر. أخفت عينيها بنظارة شمس سوداء دائرية. ورغم أن ملامحها أوشت بأنها أجنبية إلا أن جسدها

الفرار الممتلئ بدا أقرب إلى أجساد المصريات؛ فلم يكن خصرها نحيلًا وكانت أردافها كبيرة نسبيًا وهي تتمدد . ثنت إحدى ساقها وأبقت الأخرى مفرودة، وهي تداعب بأنامل يدها اليمنى أسفل بطنها بينما تستمع إلى رفيقها النحيف ذى الشعر الكثيف الذى استلقى إلى جوارها وهو يهمس إليها بدون انقطاع.

أحضر النادل البيرة. بعد قليل اقترب منا شخص ممتلئ قليلاً ولم تكن نظرات عينيه الواسعتين مريحة. حيانا مرحبا وعرفنا أنه مدير المطعم. وبعد أن تعرف إلينا بدأ يحكى حكايات متواصلة عن حياته وسفره على المراكب انطلاقاً من دمياط إلى أوروبا وما شاهده هناك. كانت لديه طاقة مذهشة على الحكى.

ورغم محاولاتي لمقاطعته إلا أنه سرعان ما يعود إلى حكاياته. قلت لبتول إننى سأذهب لشراء كريم للشمس فأومأت لى وظل هو جالساً.

عدت بعد فترة. وجدتها تجلس بمفردها وإن ظهر على ملامح وجهها الضجر.
قالت:

- شخص سخيف.
- إيه اللي حصل؟
- قعد يسألنى إذا كنت مصرية ولا لأ.. ورايحه طابا وعندى أصحاب إسرائيليين.
- إيه الرخامه دى.. أنا ههأزالك أمه دلوقت.

- لا.. لا مافيش داعى أنا قلت له كلام سخيف. لأنه بعد كده قعد يسألنى إذا كنا هنبات هنا ولا لأ.. وأنه عنده مكان لينا. وسألنى إذا كنا عاوزين أى حاجة.

- حاجة إيه يعنى؟

- مش عارفة.. بيتهيالى قصده على الحشيش.

- أما سخيف.. طيب ماتضايقيش نفسك. صممت

للحظة قبل أن أسألها ضاحكا:

- بس انت فعلاً مش عاوزه حشيش؟

- ضحكت وهى تقوم وتدفعنى قائلة:

ياللا نمشى من هنا.

عاودنا السير على الشاطئ. سألتنى عن أسباب مجيئى

إلى "شرم الشيخ". وبدون تفكير وجدت نفسى أحدثها عن

"تورا". حكيت لها قصتى معها كاملة. وعندما انتهيت سألتنى:

- ولسه بتحبها؟

- مش عارف والله يا بتول. أنا كنت طول عمرى قبل

ما أعرفها عنيد جدا. وباقدر أتحكم فى مشاعرى طول الوقت.

لكن مش عارف إيه اللى حصل لى معاها.. يمكن لأنها قدمت

لى صورة لطفلة متمردة وكشفت لى عن ضعفها. وعشان كده

ماقدرتش أخذ موقف منها أبدا. ماقدرتش أعب معاها لعبة

الرجال والست التقليدية. كنت واقف عند لحظة الطفولة

والضعف اللى اكتشفتها من خلال العلاقة الخاصة اللى كانت

فيها بتبقى زى السكرانة وتكشف ضعفها لآخر مدى. وعشان

كده فضلت ألتمس لها الأذار حتى بعد خيانتها وزواجها. مش

عارف.

ثم إننى أطرقت للحظة قبل أن أقول:

- ويمكن يا بتول لأنها مش شبه ماما أبدا.

- إزاي؟! مش فاهمه.

التزمت الصمت لفترة طويلة قبل أن أقول:

.. أنا كنت قبل نورا أعرف واحدة وكان بينا علاقة

طويلة، وماكانش فيها أى مشاكل. ومافيش حد فى الدنيا كان

فاهمنى زيها. بس قررت إنى أسيبها لأنى حسيت إنها مالهاش

أى طموحات غير الزواج وتكوين بيت. وفى لحظة ما واحدة

صاحبتنا قالت لها قدامى أنت ما تنفعيش تكونى إلا أم قررت

أنهى العلاقة فى نفس اليوم. يمكن أنا حبيت "نورا" لأنها

ماتنفعش تكون أم أبدا. مجنونة . متوترة. كل ساعة بحال.

مهمومة بنفسها . مش عارف.

حل الصمت بيننا لوهلة قبل أن تبدأ "بتول" بالحكى عن

علاقتين مرت بهما كان بطل الأولى شبيها لأبيها ؛ سلطوى إلى

أقصى حد بينما الآخر على النقيض تماما.. ثم أضافت:

- أنا فعلا محتارة.. مش عارفة أنا عاوزه إيه. أحيانا

باحس إنى محتاجة لطبيب نفسى. أنا مش قادرة أعرف لوحدى.

أحيانا بافكر إنى مش قادرة أحب. رغم إنى رومانسية جدا..

ثم صممت للحظة قبل أن تسألنى مبتسمة:

- إنت مش ملاحظ حاجة؟

- إيه هى؟

- إنت عندك عقدة "أو ديب" وأنا عندى عقدة "الكترا".

وأغرقتنا فى الضحك.

".. الولد الصغير الجميل يجلس ملتصقا بالأم التي يحبها كثيرا. عندما يحضر الأب ويسلط نظراته إليه يبتعد الولد متسللا وذليلا ومقررا ألا يعود مرة أخرى إلى أحضان هذه السيدة ويفقد القدرة على التعبير عن مشاعره لاحقا لها أو لغيرها أولئك اللواتي يتوق إليهن كثيرا ويصادقهن رغم خجله بحثاً عن أم جميلة لم تمتلك حنانها إلا واحدة كان عليه بالضرورة أن ينهي علاقته بها..".

أخبرت بتول بما دار في ذهني فابتسمت وهي تسألني:

- كان ببيرقلك؟

- أيوه.

خرجت الكلمة مني بطفولية شديدة حتى أنها أغرقت في الضحك، فضحكت بدوري.

* * *

في طريق العودة من "ذهب" إلى "شرم الشيخ" استسلمنا للصمت واستغرقت "بتول" في النوم بعد دقائق من تحرك الأتوبيس.

كان خيالي مشغولا بصورتها وبكل ما قالته لي عن حياتها ومشاكلها. ثم بما أخبرتني به عن "أحلام" بشكل خاص، رغم أنها حكّت ذلك بشكل مقتضب. قالت إن قبيلتها لا تسمح لفتياتها بالزواج من رجال لا ينتمون للقبيلة. وعندما وصلت هي إلى سن الزواج كانت أعمار الشباب المؤهلين للزواج أصغر منها، وهو ما يعنى أنها لا يمكن أن تتزوج بمنطقهم. وإذا ما تقدم إليها شخص ما من خارج القبيلة فإنهم لا يكتفون

برفضه وإهانته، وإنما أيضا تضيق الحصار عليها والتشكيك في أمرها باعتبار أنها التي استدرجته للتقدم إليها. ولكنى لم أستطع فهم ما أخبرتني به عن علاقة أحلام بشخص من داخل القبيلة، ورغم ذلك فقد كادت هذه العلاقة أن تتسبب في قتلها، والتي بسببها أيضا قرروا أن تسافر إلى فرنسا. عندما حاولت أن أفهم من بتول طبيعة هذه العلاقة أحجمت عن تقديم أى تفاصيل. وكانت هناك إشارة عابرة إلى علاقة خاصة بينهما. حاولت استيضاح هذه العلاقة وأنا متشكك في كونها علاقة سحاق.. ارتبكت "بتول" للحظات قبل أن تغير الموضوع تماما. كنت أشعر بأننى بشكل من الأشكال قد أصبحت أسيراً لهذه الفتاة. هل لقائي بها في هذه الظروف وفي هذا المكان مجرد مصادفة أم أن الأمر أكبر من ذلك!؟

أدهشتنى السيدة الدميمة بمعرفتها التامة بدروب الكهف ودهاليزه. أتبعها وقد زال عنى كل إحساس بالتعب، رغم حركتها السريعة وهى تتحنى لتمر من إحدى الكوات أو أثناء صعودها برشاقة على درج حجرى، أو ركضها فى ممر طويل، أو انحرافها المفاجئ إلى أحد الأبواب الجانبية . وبعدها تتوقف للحظة لتتأكد من أننى لم أفقد خط السير قبل أن تتابع الحركة.

خلال الطريق كانت المشاهد تمر علينا بسرعة .. رجال وسيدات يجلسون صامتين على أرض الكهف. نساء عاريات يركضن فزعا، وخلفهن رجال عرايا ذوو لحى طويلة تصل حتى عوراتهم. وفتيات لهن جمال الحور يقفن فى أركان الكهف وحيدات وهن بيكين بحرقة. ورجال يظلل الحزن وجوههم. رأيت السيدة المتحجرة "محبوبة" وهى محاطة بوجوه لسيدات وفتيات يمررن كفوفهن عليها ويرددن ترنيمات خاصة وتعلو وجوههن ملامح الإجلال. ومررنا على أسرى سيدة الجبل. وبجوار باب مأواها المهيب كانت الألحان الشبقية تتسلل من الداخل. وكلما حاولت أن أخفف من سرعة خطواتى قليلا

تحتنى على الهرولة قائلة إننا قد تأخرنا كثيرا وإننا فى سباق مع الزمن.

بمرور الوقت راودنى شعور مداهم بالإعياء. حاولت أن أجعلها تخفف قليلا من سرعتها غير أنها كانت تؤكد لى لاهثة بأننا سنتعب كثيرا وعلينا الاحتمال.

تناهى إلى سمعى صوت خرير المياه فرقص قلبى إذ أدركت أننا اقتربنا من البحيرة. خشيت أن تطلب منى ممارسة الحب. فكرت فى الهروب منها خاصة أننى قد وصلت تقريبا إلى البحيرة . وهكذا بدأت أتعمد التأخر عنها.. ثم إننى اختبأت خلف إحدى الصخور لفترة، وانتظرت حتى رأيتها تعود بحثا عنى وهى تنادى على فى جزع، وتسالت بعدها مستكমা الطريق إلى البحيرة وحدى.

كانت البحيرة تتوسط باحة حجرية كبيرة انعكس عليها طيف ضوء القمر. نظرت إلى أعلى فاكتشفت أن البحيرة تقع تحت ما يشبه فوهة بركان. وبدا المشهد متألنا بالنجوم.

سمعت أصوات همس آدمى لم أستطع تحديد مكانها بسهولة. ارتفع الصوت تدريجيا واكتشفت أنه حوار بين رجل وفتاة احتد صوتها فجأة وهى تقول:

- لن أستطيع. صدقتك كثيرا من قبل.. واستجبت لكل مطالبك وأعطيتك كل شىء.. حتى جسدى.. لم أبخل به عليك. ولكنك لم تراع شيئا.. ازداد غرورك.. ورحت تركض وراء امرأة أخرى. اذهب إليها إذن أو إلى غيرها. أنا لست جارية من جواريك.

- أرجوك.. امنحيني فرصة أخيرة.

- أعطيتك كل الفرص. أما الآن.. فأنا آسفة. عرفت
ألما لا تطاق بسبب غرورك وتفاهتك. وبعدها عانيت الوحدة
القاتلة. فعلت كل شيء لأنسى خيانتك دون جدوى. ثم إنني
لست الإنسانية التي عرفتها من قبل. ربما أنت لا تعرف مدى
التغيير الذى تلحقه جراح القلب. هذا القلب لم يعد يحوى إلا
خرابا واستعدادا بلا حدود لتدمير أى شخص ولتدمير نفسى
أولا.

- أرجوك .. حاولى أن تفهمينى . ما فعلته حدث فى
لحظة ضعف. عانيت بعدها طويلا.. واستغرق الأمر منى جهدا
كبيرا للبحث عنك حتى وجدتك أخيرا.

- وفر هذا الكلام من فضلك . فلست أنا التى تبحث
عنها. ثم إننا تكلمنا من قبل كثيرا. قلت لى يوما إننى التى
تسببت فى خيانتك لى. كان هذا قاسيا إلى حد غير محتمل. تريد
أن تلعب دور الضحية والجلاد فى وقت واحد. لا بأس. لم أمانع
عنك حتى هذه الرغبة. اعتبرت نفسى المخطئة . وقررت أن
أتحمل خطأى. وكانت المحصلة هى هذه الخرابة .. إحساس
كئيب بعدم الثقة بالنفس ولا بأى أحد، وقلب متعب حتى
الإنهاك، وممتلىء بالألم والحسرة التى تروعننى كلما شاهدت
رجل وامرأة متحابين. لن أستطيع أن أتصالح مع العالم ومع
نفسى بعد الآن. على الأقل ليس من خلاك .. أرجوك.. اذهب
الآن.

بدأت فى البكاء الذى تحول بالتدرىج إلى ما يشبه حالة هيستيرية تصاعدت عندما اقترب منها وهو يربت عليها وبدأت تضربه بكلتا يديها بعنف وهى تهدده بإلقاء نفسها فى البحيرة إذا اقترب منها، وبدأ عنادها قد بلغ مداه فما كان منه إلا أن انصرف مطأطئ الرأس.

بعد انصرافه انخرطت فى بكاء صامت مرير بعد أن انكفأت على وجهها مسندة إياه على إحدى ذراعيها، غير أن بكاءها سرعان ما راح يعلو تدريجيا، ليتحول مرة أخرى إلى بكاء هيستيرى مروع جعلنى أقاوم غصة لاحقتنى فجأة فيما راحت بين بكائها المرير تتساءل صارخة: أنا إيش سويت يا ربى؟ إيش سويت.. أنا ما استاهل كل ذا يارب.. ما استاهل.

بعد مرور فترة بدأت تستعيد هدوءها تدريجيا حتى صممت تماما. أحسست أنها نامت. هل من الممكن أن تكون هى الفتاة التى استدعتنى إلى هذا الكهف فى تلك الرؤيا / الحلم، وما الذى بإمكانى أن أفعله الآن؟ هل أوقظها.. وماذا سأقول لها؟ هل من الممكن أن تتعرف هى إلى فتوفر على كل هذا القلق.. ويبدو أننى استغرقت فى تساؤلاتى وحيرتى حتى غلبنى النعاس بدورى فاستغرقت فى النوم.

* * *

استيقظت على صوت أنثوى مباغت. رأيتها تقف أمام البحيرة وهى تردد كلمات مبهمة وقد أولتتى ظهرها. بعد لحظات خلعت ثوبها الذى لم تكن ترتدى شيئا تحته. كان لمشهد جسدها على وقع السحر ليس فقط لتناسقه المدهش وانعكاس

ضوء القمر عليه، وإنما بسبب رؤيتي لخلخال فضي مبرقش
زينت به قدمها اليمنى. ألقت نفسها فجأة إلى البحيرة، وراحت
تسبح بهدوء ذهاباً ومجئاً. أو تغطس إلى أعماق البحيرة أحياناً.
وأخيراً خرجت . أخذت تنفض ذراعيها وتمسح الماء جسدها،
ثم أنها عقصت شعرها في محاولة لتجفيفه. رأيت وجهها للمرة
الأولى. كان تماماً كالقمر في استدارته بينما بدت عيناها
السوداوان الضيقتان أشبه بعيون القطط، وتركت شعرها الأسود
الحالك لينسدل خلف ظهرها بعدما جففته قدر ما استطاعت.

ارتفع صوت ترنيمات الكهف قليلاً وبدأت هي في
الرقص على أنغامها. فبدت بطولها الفارع ورشاققتها أشبه
بإحدى شخصيات الأساطير القديمة. وعندما انتهت من الرقص
توقفت أمام البحيرة وكأنها تخاطب ملائكة لا يراها أحد سواها:
- ها أنا ذى حرة تماماً.. حرة من كل شيء.. من
القيود ومن ثيابي ومن الحب ومن أى شيء . أما قلبي الذى
أذلنى فسوف أدربه على القسوة ليصبح فى صلابة هذه
الأحجار. ربما أننى لن أحتمل هذه القسوة ولكن ذلك سيكون
أفضل من الهوان والألم الذى عانيته والذى اغتسلت منه لتوى
وللمرة الأخيرة. سأصنع الجمال للعالم، وسأجعل من نفسى مرآة
للعاشقات يرين أنفسهن من خلالى.. سأكتفى بهذا. هذا وعد
أشهدك عليه يا بحيرة الحب. ويا قمر العاشقين. جربت حظى
من العشق وكانت التجربة مريرة بما يكفى.

أسرعت بعد ذلك لترتدى ثوبها. توجهت إليها.. فشهقت
منزعجة واتسعت عيناها الأليفتان غير أنها لم تقل شيئاً..
حاولت أن أذكرها بنفسى وبالحم دون جدوى.

حكيت لها قصتى منذ دخولى الكهف وحاولت أن
أذكرها بالخلخال، فنظرت إلى نظرة عتاب صارمة وانصرفت
دون أن تنطق بشيء.. ومرت أمامى فى هدوء مبتعدة كما
طيف، وتركتنى أقف مذهولاً وقد تضاعف إحساسى بالوحدة
فجأة حتى أوجعنى قلبى من شدة كمدى.

ظهر لى الرجل الفراشة.. فنظرت إليه متسائلاً عما
يحدث. فقال لم بنبرة لم تخل من عتاب:

- لماذا تركت سيدة النجوم وهربت منها إلى هنا؟

- مررت بتجارب مشابهة وخشيت أنها تستدرجنى إلى
خطأ.

- كان عليك أن تخلصها من سجن دمامتها وكان ذلك
سيصل بك إلى البحيرة فى الوقت المناسب.

- كيف؟

- أخبرتك فى البداية بأن عليك أن تتحلى بالصبر
والروية، غير أنك أثبت هلوئك وقلة خبرتك بما فعلت. ولم
تفهم.. أن كل شيء بميقات محسوب. وأن أى اختلال فى
المواقيت ستكون له عواقب وخيمة. والوقت غير المناسب هو
أكبر عدو للعشاق. وها أنت بتعجلك فقدت فتاة البحيرة وفقدت
هى بدورها، وظلت الدميمة فيما تعانيه وربما سيستمر ذلك
لأجل طويل.

خرجت عاريا من الحمام دون أن أجفف نفسي ، وبقيت واقفا فى الغرفة لوهلة. لم ينجح استحمامى للمرة الثالثة من إزالة إحساسى بالتوهج أو بتخفيف حدة الغضب والغيط والضيقة الذى يحاصرني ويشعرنى بالاختناق. ارتديت ثيابى بسرعة وقررت التوجه إلى "البار" الذى يقع فى أول الشاطئ.

توجهت إلى "البار" الخشبي الدائرى الذى يتوسط المكان وطلبت بيرة من "البارمان" رحى أترجها بسرعة. لمحت الفتاة الإفريقية التى شاهدتها أمس وهى تدخل من الباب بصحبة إحدى صديقاتها. كانت ترتدى "تى شيرت" أحمر وشورت جينز ينتهى عند أعلى وركها. توجهت إليها فور جلوسها مع صديقتها. حبيتها . اقتربت منها مبديا رغبتى فى أن أقدم لها شرابا. ابتسمت وسألتنى عن مكان جلوسى فأخبرتتها. قامت معى وتوجهنا إلى البار. شاهدت الشاب الذى كان برفقتها أمس على الباب. تجول بعينيه فى أرجاء المكان وعندما وقعت عيناه علينا اقترب منها فى هدوء. حياها مبتسما فمالت على أذنى وأخبرتتى بأنها ستعود بعد دقائق فهزرت لها رأسى.

طلبت "بيرتين" من البارمان محاولاً إخفاء ضيقى . بعد دقائق عادت وحدها وجلست بجوارى . سألتنى عن اسمى فأخبرتها وسألتها عن اسمها فقالت:

- "سوزان".

- من أين؟

- من أثيوبيا. وأنت؟

- أنا مصرى..

- لو لم تكن فى مصر لتصورت أنك لبنانى.

- هل ذهبت إلى لبنان من قبل؟

- لا.. ولكنى ذهبت إلى دول عربية أخرى ورأيت كثيراً من اللبنانيين هناك.

- شعب لطيف.

- نعم.. جدا.. وأنت ماذا تعمل؟

- مصور فوتوغرافى . لكنى هنا فى أجازة. وأنت؟

- أنا أيضاً فى أجازة . أين صديقتك؟

- أى صديقة؟

- التى كانت ترافقك أمس.

- سافرت.

عندما انتهينا من شرب البيرة اقترحت عليها أن نغير المكان. قالت لا بأس.. أشرت إلى إحدى الطاولات فى ركن بعيد مواجه للبحر. فأومأت موافقة وقالت إنها ستذهب إلى صديقتها قليلاً.

تأملت مياه البحر التي عكست صورة "بتول" على صفحتها وهي تبتسم ابتسامتها الجميلة. عادت "سوزان" بعد فترة وجلسنا صامتين لوهلة. أدار الـ "D. J" أغنية توني براكستون "UN BREAK MY HEART".

سألتني سوزان: ألا تريد أن ترقص؟ فنهضت على الفور وأنا أهز رأسي بالإيجاب.

توجهنا إلى الرقعة المخصصة للرقص وشعرت أنني مثل بعض الشيء. احتضنتها، منتشياً. عند المقطع الذي نقول فيه براكستون "WITHOUT YOU I CAN'T" GO OOOON كانت "سوزان" تصرخ بالمقطع ذاته وهي تضمني بقوة مما جعلني أضمها بقوة أشد حتى إنني رفعتها قليلاً عن الأرض. بانتهاء الأغنية عدنا إلى مكاننا. تجرعنا رشفتين من قدحي البيرة الموضوعين. قالت سوزان إلى وهي تهمس:

- هل تريد أن تنام معي؟

- جداً..

- كم ستدفع؟

- كم تريدان؟

عرضت مبلغاً مبالغاً فيه فقلت لها:

- ليس لدى أكثر من ريع هذا المبلغ.

- ركزت عيناها في عيني قبل أن تقول بنبرة دلال

شديدة:

- لوخيرتني لما طلبت منك شيئاً.. لكني أساعد أمي

وأخواتي.

- أنا لا أكذب عليك. أنا فعلا لا أملك إلا هذا المبلغ.
 - نصف المبلغ حتى.. أرجوك.
 - صدقيني لو معى ما طلبت ما ترددت.
 صمتت للحظة قبل أن تسألنى:
 - هل لديك مكان؟
 - أنا أقيم فى غرفة صديقى.. ومن المحتمل أن يعود
 اليوم، سيكون من الأفضل لو لديك أنت مكان.
 فكرت قليلا.. ثم قالت:
 - لا بأس. أختى تقيم معى بالغرفة.. ولكننا سنجد
 طريقة.

إنصرفنا وقد تأبط كل منا الآخر، وكنت أشعر بأننى
 مثل تماما.. وحلقى جاف. أثناء خروجنا رأيت رفيقها ينظر
 إليها بسخرية وهو يقول: GOOD BYE MISS JAMICA.
 وأشارت هى إليه بأطراف أصابعها.

* * *

فتحت باب الغرفة بالمفتاح وتركتنى بالخارج للحظات
 ثم أشارت بالدخول. كانت الغرفة مقسمة إلى ردهة بها منضدة
 صغيرة و"كنبة" مفصولة بجدار عريض عن الغرفة الداخلية.
 أمسكت بيدى وهى تتجه إلى الغرفة الداخلية. أضاءت النور.
 كان هناك سريران متقابلان وعلى أحدهما وجدت فتاة سمراء
 نحيلة تنام فى رداء نوم قصير. أوقظتها "سوزان" فأخذت تنظر
 إلى بدهشة. وبدء حوارا بلغة لم أفهم منها شيئا.. أشارت إلى
 "سوزان" خلاله عدة مرات قبل أن تنظر إلى وتسألنى عن

المبلغ. ناولتها إياه فأعطته لأختها التي قامت وسارت في تناقل
وابتسمت لى وهى تمر أمامى فاعتذرت لها عن إزعاجها. لم
تلتفت لى. أخبرتتى سوزان بانها لا تعرف الإنجليزية.

خلعت سوزان "التي شيرت" ثم "الشورت". كانت تلبس
طاقما داخليا أسود بدا لى غير ملائم للون بشرتها السمراء.
خلعت السوتيان ثم انكفأت لتخلع حذاءها فتهدل نهداها
الصغيران. طلبت منى أن أخلع ثيابى ففعلت بسرعة. أطفأت
النور، وذهبت إلى الفراش. عندما احتضنتها بدا جسدها غلاميا.
تحسست ظهرها وفخذها . اكتشفت أن بشرتها ليست ناعمة
كانها خالية من الماء. وكان لجلدها الرطب رائحة لطيفة وكأنها
عبقته بعطر كثيف. حاولت أن أتكشف مواقع إثارتها بشفتى
فبدت شديدة البرودة. وعندما خلعت سروالها اكتشفت أنها حلقت
شعر عانتها تماما. تلمست موضع خصوبتها. أدركت أنها
مختونة. طلبت منى أن أخلع سروالى وبدت متعجلة. عندما
أعتليتها تذكرت أختها وخشيت أن تكون جالسة لمراقبتنا. فنمت
على ظهري وأنا أقول لها أننى أفضل الأمر هكذا. استقرتتى
هرولتها وهى تحاول الوصول بى إلى الأورجازم ، وباستمرار
إلحاحها جذبتها من ذراعها حتى صار رأسها مواجه لراسى
وقلت لها هامسا:

- قد تكون هذه الليلة هى عمر علاقتى بك.. ولا بأس
أن تطول قليلا..

هدأت تدريجيا وبدأت تهمس فى أذنى بكلمات مشبوبة
بغنج سافر، فبدت وكأنها تجتر ذكريات حميمة من علاقات
حقيقية سابقة.

عندما انتهينا أسرعنا بارترداء قميص نوم وردى اللون
التقطته من على الأرض وإعادة ترتيب أسيائها المبعثرة . كنت
أرغب فى النوم ولكننى إزاء تعجلها السخيف قمت وارترديت
ثيابى بسرعة. حاولت أن أشرح لها أننى لم أكن أحتاج أكثر من
النوم بين نهديها وأن أستمع لغنائها أو هدهدتها غير أننى
استسخفت الفكرة. أثناء خروجى لاحظت أختها نائمة على
الكنبة وقد ارتفع صوت غطيظها. اقتربت "سوزان" منى
فشكرتها واعتذرت مرة أخرى عن قلة المبلغ، ثم أودعت على
جبينها قبلة خافتة.. وخرجت.

* * *

كان الشاطئ خاليا. والأفق البعيد بلونه الذى تراوح بين
الأزرق الفاتح والرمادى يشير إلى اقتراب الفجر. شعرت بحزن
موحش ثقيل. اقتربت من مياه الشاطئ وسرت بمحاذاة المياه
بينما هواء الفجر الرطب يلفح وجهى فأسرعت من خطواتى.
استدعت ذاكرتى بتول التى سافرت فجأة بعدما تعلقت بها
كغريق. كان رحيلها الغامض مثل صدمة. خاصة أن رد فعلها
كان لطيفا حينما نقلت لها مشاعرى أمس هنا على هذا الشاطئ
فما الذى حدث؟

".. الفتى نفسه الذى كان غارقا فى حبه الأفلاطونى
الأول فى رأس البر. يستيقظ فى اليوم الموعد مكتنبا. يقضى
نهاره مع أصدقائه كيفما اتفق يسكنه حزن موحش ثقيل.
بحلول المساء يتنصل من مواعيده معهم ليركب "الطفطف" من
شارع ٨٩ وحتى شارع النيل. ويسير من هناك وحتى شارع

١٢ وقلبه يتقافز بين ضلوعه ويعرف أن فتاته لا تستطيع مغادرة العشة في يومها الأخير. يحوم في دوائر قريبة وبعيدة محاولاً التقاط صورة المعشوقة التي ما إن يلمحها حتى يرف قلبه. وقبل انتصاف الليل بقليل يجلس خائر القوى بجوار إحدى العشش المظلمة القريبة من مأوى الحبيبة المقدس ويغرق قلبه عندما تبدأ الأنوار في الانطفاء تدريجياً فيعود وحده حزيناً سيراً على قدميه وهو يقبض بقلبه على طيف المحبوبة التي لن يراها لعام كامل قادم...".

مع اختفاء فتاة البحيرة أدركت أنه لم يعد لى أمل فى شىء وأن هذه الرحلة الطويلة لن تسفر عن أى شىء. وبدأت أسير فى هدوء باتجاه يخالف البحيرة وأنا أرقب أزواج الفراشات التى تحلق حولى متحسرا. لاحظت ضوءا ساطعا ياتى من نهاية الطريق فعجلت من خطواتى قليلا، تبينت فجوة كبيرة فى مواجهتى تقضى إلى خارج الكهف، نظرت عبرها اكتشفت أنها تطل على هاوية ضبابية سحيقة. هل هذه هى النهاية؟ أهذا هو مصيرى؟ تأملت حافة الكوة أمامى والأفكار تعصف بعقلى وبسرعة كبيرة، وراحت مخيلتى بدورها تدور بصور ومشاهد من اماكن متعددة وزمن مختلف. وتوقفت هذه العاصفة أخيرا عند تفضيلى للمكوث هنا على وجه التحديد.. تماما على الحافة ما بين الكهف بكل ما فيه من عوالم وأشخاص وأحلام وهواجس، وبين الهاوية فى الخارج. فهكذا كانت حياتى كلها.. على الحافة.. بلا يقين حقيقى.. حافة الحب وحافة النجاح وحافة الأماكن التى كنت أعبر خلالها من غربة إلى أخرى كأنه لا مفر منها إلا إليها. جلست بجوار الحافة. وأسندت رأسى للجدار واستسلمت مرة أخرى لأفكارى ولعصف

الذاكرة التى كانت تعبر بى خلال الزمن والمكان فلا تعكس صورتى فيها عبر ما تعلق بها من أشخاص وأماكن وأزمنة إلا صورة الغريب. وهكذا استسلمت لأفكارى حتى غابت عن وعي كل الأشياء. بعد فترة سمعت جلبة اختلطت بها أصوات ميزت منها تباعا غناء "هند" الرقيق وبحة صوت "تورا" وضحكة "بتول" وهمس "سيدة الكهف" ونداء "الصلت" ومناجاة فتاة البحيرة. ومن بعيد سمعت صوتاً له إيقاع رقيق وأليف ارتفع تدريجياً معلناً عن اقتراب صاحبه بينما كانت الأصوات الأخرى تتلاشى تباعاً.. وكنت أهذى كمحموم:

نداءاتك يزرکشها رنين الخلال / قلبى يرقص على
إيقاع خلخالك / عيناك يا مليكتى تضيئان / ارفقى بقلبي الطفل
فأنا لا احتمل أهاتك / خمريه أنت لا سمراء إذن / قلبى يرقص
على إيقاع خلخالك / اغرقتنى بخر عينيك فلا تبالى بهديانى /
نداءاتك يزرکشها رنين الخلال / عيناك تتسعان فى مرآة عيني
فتحتويانى / لا تبعدى ساقيك لأتحسس الخلال / دثرينى بعريك
لنطير / دثرينى بعريك ل ن ط ي ر !

تمت

القاهرة ١٩٩٨

شكر

انقدم بالشكر لكل من ساهم فى ظهور هذا الكتاب..
وعلى رأسهم أستاذنا الجميل صنع الله إبراهيم الذى كان
لقراءته وملاحظاته تحقيق الدافع لنشر الكتاب. كما أشكر
الأصدقاء ياسر عبد اللطيف ويحيى المنذرى وأحمد الرحبى
ومحمد البلوشى وخالد العزرى على ملاحظاتهم القيمة على
الفصول الأولى.

هناك بعض الاقتباسات من كتاب "المهابهاراتا" كما تم
الاستفادة فى فصل "سيده الكهف" من كتاب "الأناسيد الأشورية"
الصادر عن دار الساقى.

* صدرت من هذا الكتاب طبعة خاصة محدودة امتلأت بالأخطاء
الطباعية وهو ما أتاح لي تعديلها وإجراء نظرة مدققة على النص
تجعل من هذه الطبعة الجديدة الكتاب الذي أتحمل مسئوليته.

بين يوميات الراوي في رحلة استحمام بمدينة « شرم الشيخ » هرباً من ذكرى علاقة عاطفية فاشلة، ورحلته في أعماق كهف الفراشات، بكل ما يحتويه من عوالم عجائبية، تدور أحداث هذه الرواية.

تتتابع فصول الرواية بالتوازي بين مذكرات الراوي التي ألقى بها بين يدي « الرجل الفراشة » ممثله لماضيه وبين حاضره الذي يبدأ بدخول الكهف، مكتشفاً لعالم عجائبي مدهش عبر نماذج السحرة والمردة، الشخصيات التي شوحتها قسوة الأيام، والنساء والفتيات اللاتي يجسدن نماذج الإلهام والعشق والفتنة والشبق.



ابراهيم فرغلي في الرواية يقدم تجربة جديدة يجمع فيها بين رواية التفاصيل اليومية بعين راو محايد، والرواية العجائبية، مستلهماً تراث الحكى العربى القديم.



800011576

مكتبة مبارك العامة